HOW TO COOK A CORPSE AT HOME

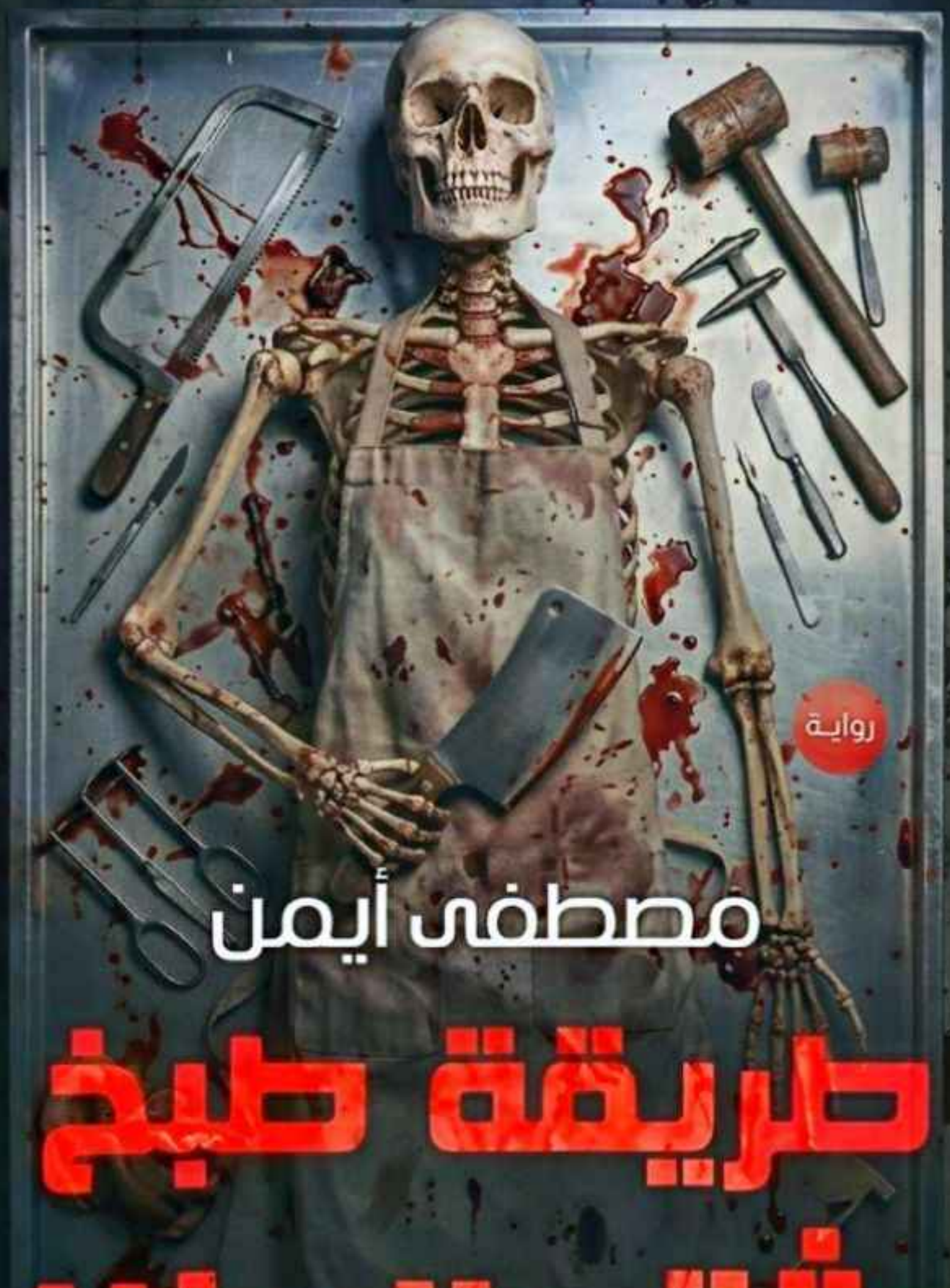

رواية

مصطفى أيمن

طريقة طبخ جثة بالمنزل

هل أنت مستعد لتدخل عالم الجثث المظلم ؟

مدينة الأدياء للنشر والتوزيع

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

1 شارع حسن أبو زيد – الزاوية الحمراء - القاهرة

01019978066 - 01117130961

Cityofwriters24@gmail.com

طريقة طبخ جثة بالمنزل

رواية – مصطفى أيمن شحاته

رقم الإيداع 26183 – 2025

الترقيم الدولي 5 – 03 – 8381 – 633 – 978

جميع الحقوق محفوظة @

يمنع منعًا باتًا الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة، أو النشر الإلكتروني، أو التصوير الضوئي للمحتوى، أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف. ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقًا لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

الإهداء

إلى والدي الذي يدخن السجائر ويملأ الغرفة بدخانها، وينفخ في وجهي باستمرار، لقد صنعت عالمًا في روايتي يمنع شربها في العلن، أرني كيف ستدخنها الآن!

***

@ART_OF_BOOK

المقدمة

عزيزي القارئ، ليست المقدمة هي التي ستقيم منها عملي، فأنا أكتب ولست منتظرًا تقييمك، ولم أنتظر نقدك عن مدى وقاحة البطلة أو الأشخاص الثانويين. اقرأ في صمت، وبعد الانتهاء ابحث عني وقل لي إنها أفضل رواية قرأتها على الإطلاق، وأنا لم أنتبه لك. تعلم لماذا؟ لأنك قرأت تلك السطور وكنت تنتظر مقدمة.

***

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

(1)

(الجمعة)

على حافة سور نافذتي، أقف كل يوم مفكّرة بالانتحار، لكن ما يدفعني إلى الوراء هو الخوف من الاصطدام وانفجار جمجمة رأسي وانفكاك أجزاء جسدي، خائفة من تبعثر أشلائي وانكشاف أسراري التي أخبئها دومًا عن البشر.

أتذكر كلمات أمي المعتادة، الحياة تبصق على من يحفي خلفها، ونفس الحياة أيضًا تبكي لمن أراد جنة الله، في كلتا الحالتين الحياة ليس لها قيمة لفتاة فاقدة الشغف تجاهها، واليوم فقدت كل شيء كي أحصل على نفسي التائهة المنغمسة في الإجابة.

أعمل لدى شركات الإنترنت، وظيفتي في خدمة العملاء، لاستقبال مشاكل الشعب التالفة، عمل بائس يجب عليّ التواجد كل يوم في مقر العمل في تمام الثامنة صباحًا، أجلس على مقعدي ولا يمكنني المغادرة حتى تدق الرابعة عصرًا، أرتدي حقيبتي وأغادر من مقر عملي متجهة إلى منزلي الكئيب الذي يشبه القفص.

تحاوطني الأسوار من جميع الجهات لكن أرى السماء والأشخاص من الأعلى.

أسكن في الروف في غرفة صغيرة بها سريران، واحد لجسدي والآخر تنفرد عليه أمي (فاتن)، ولدينا نافذة صغيرة فوق سريري تجلب لنا بعض الهواء، وخزانة ثياب صغيرة تحتوي على بعض الملابس الموجودة بكثرة في كل مكان.

لقد كذبت، أنا لا أملك إلا قميصًا لونه أزرق وسروال جينز، ليس لدي غيرهما في خزانة الثياب، يجلسان بمفردهما يتحدثان مع بعضهما كل يوم ويدعوان ربهما أن أجلب غيرهما بسبب كثرة استخدامي إليهما.

كل الذي أكسبه من عملي أنفقه على الغرفة الصغيرة التي أمامي، لقد استأجرتها حديثًا من صاحب العقار كي أجلس فيها بعيدًا عن الغرفة التي تسكنها أمي.

استأجرتها بسبب الضوضاء التي أفعلها، فهي تزعجها، لم أقول لكم إنها تعاني من مرض السرطان، لكن ستشفى قريبًا.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

وأخيرًا اليوم بحوزتي ثمن إيجار الغرفة وسوف أتطلع على ما بداخلها.

بعد إلحاح كبير على الموافقة أخيرًا أخذ مني صاحب العقار (حامد عبد الحميد) ثمن الإيجار لمدة ثلث أشهر، وأخذت منه الإذن في فتح الغرفة، لكن نبهني أكثر من مرة على أن أحذر من الحشرات بداخلها، هو لم يدخلها منذ سنوات، وافقت على طلبه، والآن يمكنني كسر القفل بمطرقة صغيرة، فهو يأكله الصدى وسهل الكسر.

ثلث ضربات كانت كافية لفتح الغرفة، قمت بدفع الباب بقوة، يوجد خلفه بعض الكراكيب القديمة، صناديق من النوع الكرتوني مغلقة ببعض من اللاصق، وفوق الصناديق يوجد تماثيل حديدية مصبوغة باللون الذهبي والغبار يحاوطها.

كل زوايا الغرفة ممتلئة بخيط العنكبوت، ويوجد بعض الحُفر التي تسكنها الفئران.

استنشقت بعض الأنفاس لكن رفض صدري ذلك الغبار، بدأ السعال وبدأ معه تتطاير الغبار، تابعت النظر حتى لاحظت أمامي ستارة خضراء أو تقترب من اللون الزيتي وعليها حشرات، أخذت بعض الخطوات حتى اقتربت من النافذة، سحبتها لأرى خلفها نافذة مغلقة، قمت بفتحها، لكن توصلت للعنوان الخاطئ!! إنها مدخل لغرفة أخرى وليست نافذة، ألحقني شعور السعادة والفرح، دائمًا أحب الأشياء الغامضة والبحث وراء كل ما هو صامت، تراجعت إلى الوراء قليلًا ثم قمت بتسلق النافذة لأكون داخل الغرفة المخبأة، كانت الغرفة أصغر بكثير من السابقة، وأيضًا كان الضوء بها معدومًا!

سواد كاحل لا أرى شيئًا.. أخرجت هاتفي وقمت بتشغيل المصباح، وأول شيء ضربه الضوء هو كتاب يوضع فوق طاولة خشبية.

اقتربت من الكتاب وقمت بفتحه، سقطت منه صورة امرأة عمرها فوق العشرين عامًا، شعرها أصفر، عينها بنية، كانت تتميز ببعض الجمال، لكن وزنها الزائد وبطنها المنتفخة هما السبب في انخفاض ملامحها، يبدو إنها تحمل جنينًا على وشك النزول، وفي خلف الصورة يوجد عليه توقيع اسم (نوال).

وضعت الصورة في الكتاب مرة أخرى، ثم وجهت ضوء الهاتف في أنحاء الغرفة لأرى باقي التفاصيل، لا يوجد في الغرفة سوى الطاولة والكتاب وخزانة ثياب

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كبيرة.

يوجد أسفلها حشرات بكثرة لا أعرف ما سبب وجودها هنا!!

اقتربت نحوها وقمت بفتح الخزانة.. في داخلها بعض الملابس القديمة لا تهمني بشيء، لكن خلف الملابس كان يوجد جثة!!

فزعني ذلك المشهد الغريب، وبسبب تلك الأجواء المهيأة للرعب فزعني أكثر صوت أمي التي كانت تنادي عليّ من خارج الغرفة:

- "نور، يا نورا!"

تسلقت النافذة سريعًا وقمت بغلقها واسترجعت الستار وغادرت الغرفة الثانية.

رأيتها في منتصف الساحة الخارجية للروف تجلس على ذلك الكرسي المتحرك قائلة:

- "ما الذي تفعلينه بالداخل؟!"

- "الغرفة استأجرتها حديثًا من عم حامد صاحب العمارة من أجل العمل فيها لترتاحي من إزعاجي المستمر."

- "كام مرة أبلغتك بالابتعاد عن حامد!"

- "لماذا يا أمي؟ خفّض عم حامد سعر الإيجار عندما علم باختفاء أبي."

ابتسمت أمي وقالت:

- "يا له من رجل غريب! أغلقي الغرفة وتحركي لتأكل قبل النوم."

قمت بسماع ما قالته أمي ودفعتها إلى غرفتنا، وظلت نظراتي متعلقة بالجثة الجالسة بالدولاب!

انتهيت من إطعامها، وذهبت بها إلى الحمام لتقوم بالاستحمام.

رغم إرهاق جسدي طوال اليوم، لكن لم أنسَ ذلك الحديث الذي أفعله بيني وبينها الذي يجعلها تذهب إلى النوم، عند الانتهاء من الاستحمام طلبت مني الذهاب إلى فراشها، تسندت عليّ حتى بلغت السرير ثم فردت جسدها وانزلقت أسفل الفراش وبدأت بإخراج أنفاس تريح قلبي.

@ART_OF_BOOK

كم الارتياح الذي يصل إليه قلبي عند سمع أنفاس أمي، لم أصل لسبب حتى الآن لتلك الشعور، يبدو به شيء من الأمان ودرع الحماية من قساوة الحياة، رؤيتها فقط سبب كافٍ للسعادة طوال اليوم.

بعد أن تأكدت من نومها، أخذت بعض الخطوات إلى الوراء لكي أستلقي على سريري أبحث عن النوم، لكن الذي أفكر فيه الآن!! تلك الجثة التي رأيتها في الخزانة.

قفزت من على فراشي وأخذت هاتفي وذهبت نحو الغرفة الغامضة.

هدوء تام يوجد في الخارج، كانت تدق الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، صوت خطوات قدمي الذاهبة نحو الغرفة مرتفع في أنحاء السماء، يشغل قلبي ويربكه.

بعض الخطوات الهادئة والسريعة كانت كفيلة بتوصيلي إلى الغرفة بدون إفاقة أمي.

وصلت عند باب الغرفة الذي يوجد خلفه الصناديق والكراكيب، حاملة الغبار بكثرة، قمت بدفعها بهدوء ثم ذهبت نحو الستارة وسحبتها بدماثة وتسلقت النافذة.

أقف أمام خزانة الثياب أرتعش خوفًا من فتحها، تقترب يدي اليسرى من المقبض، أسحبها برفق ومعها خرجت كل الروائح الكريهة مرة أخرى.

جثة منتهية الصلاحية، يبدو إنها تجلس هنا منذ سنوات، لقد تحللت وتبقى منها العظام فقط.. تجلس بإحدى جوانبها، يقابلني الجانب الأيسر من الجثة، وينظر وجهها نحو اليسار، وتنفرد ساقاها ممددتين لليسار، وأيضًا يداها جالستان بجانبها.

قمت بإحضار كيس شفاف كان يوجد في زاوية الغرفة، ارتديته في يدي اليمنى وقمت بسحب الجثة خارج الدولاب.

تفككت كل أجزاء الجثة وصارت مثل قطع المكعبات، وتفككت معها كل أجزاء عقلي.. وتوقف عن التفكير، لكن لمعت في عقلي فكرة حديثة وهي جلب قطعة عظام من هذه الجثة وأقوم بتحليلها عند صديقي (عاصم) الذي يعمل في معامل التحاليل، أعلم إنها فكرة صعبة التنفيذ لكن ذلك ما فكرت به!

أخذت القطعة ووضعتها في جيبي، وقمت بإخفاء باقي الجثة ووضعتها في خزانة الثياب مرة أخرى وأغلقت الخزانة وتسلقت النافذة وذهبت لفراشي.

أسمع صوت ضربات قلبي، إله ينبض بسرعة الضوء، لا أعرف كيف فعلت ذلك؟!

لم أصدق قطّا أنني في يوم ما سوف أملك في جيبي قطعة عظام جثة مقتولة بإحدى الغرف المجاورة.

هذا مثل ما أشاهد في الأفلام والروايات التابعة للأستاذ (حسن الجندي)، لم أعرف لماذا ابتسم؟! لماذا وجهي لم يبكِ على ما يشاهده؟ هل لا يوجد بقلبي رحمة؟! أم تم نزع قلبي من قبل؟

انغمست في النوم وأنا أفكر في الجثة حتى صباح الغد.

***

قمت من نومي على صراخ الجيران في الأسفل، ارتديت ثيابي المعروفة كل يوم؛ القميص الأزرق والسروال الجينز، وحملت حقيبتي التي أضع فيها بعض الكتب والروايات التي لم أقرأها يومًا، وأيضًا أضع فيها قطعة عظام الجثة!!

ركضت سريعًا نحو الخارج ولم ألقِ السلام على أمي بسبب تأخري عن عملي، أخذت وسيلة مواصلتي المعتادة، حافلة الشعب، وجلست بجانب رجل يعشق الدخان عشقًا، يشربه بكثرة، في أقل من عشر دقائق قام باستنشاق أكثر من ثلاث سجائر، لكن كيف يعثر على كل هذه السجائر والبلاد تعاني من أزمة استيراد السجائر؟!

آخر شيء أتذكره عن السجائر تلك الحاويات التي تم إغراقها في أنحاء المحيط، وكانت سببًا في وقوع اقتصاد البلاد، لأن جميع الشركات المصنعة للسجائر تم إغلاقها بقرار من الجيش في سنة 2032.

تلك المعلومة قالها لي (عاصم) صديقي المقرّب، سأتحدث عنه في الصفحات القادمة.

وفي نفس السنة اتحدت أكبر الشركات لاستيراد أكبر كمية هائلة من حاويات السجائر، لكن لسوء حظ أصحاب تلك الشركات غرقت السفن وهي متجهة نحونا بفعل فاعل من بعض القراصنة في المحيط.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كانت صدمة لأصحاب الشركات؛ لأن البلاد كانت مُصنّفة من الدول الأولى عالميًا في استهلاك السجائر سنة 2030، وكانت السجائر شيئًا مقدسًا في يوميات الرجال وبعض النساء.

لكن بعد تلك الواقعة أصبحت السجائر صعبة التداول، وأصبح بعض الشباب والرجال يشربون الحشيش دون تبغ، وأصبح شرب الحشيش في العلن أمرًا عاديًا.

وذلك ألغي قانون حبس أي فرد يضبط بحوزته مخدرات سبب واقعة السجائر.

وبعد فترة من الزمن قرر أصحاب الشركات جلب صفقة حاويات سجائر مرة أخرى، فكانت تلك القراصنة تتابع الحاويات وتسرقها كما فعلوا من قبل، فصدر قرار حكومي بعدم استيراد السجائر من الخارج ومنع شربها في البلاد، ومنع تصنيعها أيضًا.

وتبدّل الحال؛ أصبحت السجائر من المحرمات، أما الحشيش والبانجو فأصبحا كالهواء يسبحان في العلن.

بدأ يتطاير نحوي الدخان، وفي وهلة سريعة سألت الرجل الذي أجلس بجواره:

- "من أين جلبتَ تلك السجائر؟!"

ضحك ضحكة ساذجة وقال:

- "إنها بحوزتي منذ ما قبل واقعة الحاويات، أملك في منزلي غرفة بها صناديق من السجائر المصرية."

قلت له:

- "تشربها بلا خوف من أولئك اللصوص الذين يزحفون على رائحة السجائر؟"

أجاب:

- "من أجل ذلك أجلس في الحافلة وأشربها، وعند الانتهاء أنزل مباشرة."

بعد إنهائه تدخين سيجارته، قام الرجل من مجلسه وغادر الحافلة وهو ينفخ آخر أنفاسه عقب السيجارة.

تابعته بنظراتي حتى رأيته يدلف نحو منزله البسيط المكوّن من طابقين، يسكن في حي شعبي يُسمّى (باب الشعرية).

رفعت يدي لألقي عليه التحية، ثم تحركت الحافلة من أمام منزله.

أجلس على مقعدي المهترئ الذي يخرج منه الإسفنج الأصفر، أضغط على أناملي وأتابع تلك الحافلة الخالية من الركاب، لا يوجد بها سوى بعض الرجال الذين يشتهون أجساد النساء.

ينظر إليّ رجل بغيض صاحب شارب كثيف ووجه يوحي بأنه الراعي الرسمي للتحرش، يضغط بأسنانه الأمامية على حافة شفتيه، نوع من أنواع المغازلة القديمة.

لا يرى نفسه في المرآة؛ يرتدي سروالًا أخضر اللون وقميصًا أحمر منقطًا بالورود.

لا أنظر إليه كثيرًا، فهو لا يشغلني، لكن ذاك الذي يجلس خلف السائق هو من يشغلني.

شاب يحمل في يديه ما يسمّونه (الفُل)، أولئك البائعون انقرضوا مثل (سيد قشطة)، انقرض الفُل قبل اختراع فيسبوك، فلماذا يتجول هذا الشاب في الشوارع طوال اليوم؟

هل على أمل أن يبيع واحدة لزبون متشرّد مثله؟!

أنا أؤمن أن هذا الرجل يخفي شيئًا، وتلك الزهور درع وهمي ليراه الناس ويعطفوا عليه.

إذا فكّر أن يقترب مني ويستعطف قلبي الحنون سأركله بعيدًا وأقول له أن يبحث عن عمل شريف أفضل من مدّ يديه للبخلاء.

جاء دوري في النزول أمام مقر عملي، أحد فروع شركات الاتصالات.

أجلس على مقعدي وأستقبل المكالمات لحل مشاكل الشعب مع الإنترنت، ملل رهيب عندما أستمع كل يوم إلى نفس المشكلة، ويجب عليّ حلها.

يتناقش معي النساء والرجال وبعض الشباب الذين لا يفقهون شيئًا عن الكوميديا، يريدون مني أن أتابع حديثهم السخيف الذي يحمل نكات قديمة مرّ عليها الزمن.

@ART_OF_BOOK

لكن لحسن حظي يوجد قانون للإنترنت، وإلا لكنت جلست هنا حتى يحل الليل.

بعد واقعة غرق حاويات السجائر، كان البعض يستخدم الإنترنت لعرض السجائر المخزنة لديهم وبيعها بأسعار متفاوتة وباهظة الثمن.

كان الأشخاص يتفقون عبر الإنترنت على سعر البيع ويتقابلون ليلًا في الشوارع لتبادل الصفقة.

كشفت الحكومة تلك الصفقات، وعلمت أنها تتم ليلًا، فأصدرت قرارًا بتعطيل الإنترنت عن البلاد من بعد السادسة مساءً حتى السادسة صباحًا.

وفي النهار تبذل الحكومة جهدًا أكبر للبحث عن أي شخص يعقد صفقة تبادل سجائر ممنوعة لتقوم بحبسه فورًا.

قمت بإخراج هاتفي للاتصال بـ(عاصم) لأعلمه أنني أريد مقابلته:

- "إلى متى سأظل أتصل بك أيها الجبان؟!"

- "كنت أفكر بالاتصال بك."

- "دائمًا تقول تلك الكلمة، أنت لا تعرف غيرها، على العموم أنا أريد مقابلتك اليوم."

- "لماذا؟!"

- "عندما تراني ستعلم، أقابلك في السادسة مساءً على مقهى الباشا في وسط البلد، سلام."

مرّ الوقت ببطء شديد حتى جاء موعد المقابلة.

وصلت إلى المقهى في السادسة وطلبت مشروبي، وانتظرت عاصم لحين وصوله.

أتابع بعض الأشخاص الجالسين بجواري، جميعهم يهمسون بصوت خافت لا يمكنني سماعه، هذا شيء يستفزني كثيرًا! للأسف أنا أحب أن أسمع ما يقوله الآخرون و..

عاصم:

- "ماذا تفعلين في الهاتف؟! لقد تم فصل الإنترنت."

قاطعني عاصم مع وصوله، نظرت إليه قائلة:

- "ألعب في بعض الصور حتى يأتي الشخص الجبان."

- "لم أسلم من لسانك، أعلم، لماذا قمتِ بدعوتي؟!"

- "سنتحدث وأنت واقف هكذا؟! اجلس أولًا لكي أقول لك."

- " لماذا هذه الدعوة المفاجئة يا غريبة الأطوار؟!"

تنهدت قليلًا، واقتربت من وجه عاصم، ووضعت يدي على الطاولة قائلة:

- "أريد مساعدتك في شيء ما، لكن قبل أن أفصح عنه، أوعدني أنك ستحفظ السر."

ذهل عاصم من كلماتي وقال:

- "وما هو السر؟!"

- "عثرت على كنز!!"

- "ما هو؟ قطعة آثار؟!"

تراجعت إلى الخلف حتى شعرت بظهر المقعد وقلت بصوت خافت:

- "لا، جثة!!"

صمتنا سويًا، ثم تابعت الحديث مرة أخرى:

- "إحدى صديقاتي قامت بدعوتي إلى منزلها، وعندما تجولت في المنزل اكتشفت أنها تخبئ جثة في غرفتها، تلك الجثة تم تحللها ولم يتبقَّ منها سوى العظام، أخذت عظمة منها وأريد تحليلها ومعرفة هوية الجثة!"

ظل عاصم صامتًا قليلًا ثم قال:

- "وماذا ستستفيدين من كل هذا؟!"

- "شيء كهذا ليس مفيدًا بالنسبة لنا؟! نبحث خلف الدليل لنكشف حقيقة الجثة."

- "أنتِ لستِ محققة في الإنتربول، أبلِغي عن صديقتك، والشرطة تفعل ما يتوجب عليها!"

- "أفهم من ذلك أنك لا تريد مساعدتي؟!"

خفض عاصم صوته قليلًا وقال:

- "ولو افترضنا أنني وافقت، أنا لا أفهم شيئًا في التشريح، كلانا نحتاج إلى شخص آخر ماهر في تشريح الجثث والعظام."

- "نعم، ولهذا السبب جئت إليك اليوم، أنا لا أعرف شخصًا ماهرًا في التشريح، وعلى أمل أنك تعرف، بما أنك تعمل في التحاليل والفحوصات."

- "بعيدًا عن أنني أعمل في معمل تحاليل دم، وليس له علاقة بالتشريح، لكن لدي شخص من الممكن أن نستعين به في هذه العملية."

- "من هو؟!"

- "ستعرفينه عند مقابلته."

غادرنا المقهى ولم أعرف إلى أين نتجه، كان عاصم يملك دراجة نارية، صعد عليها ثم صعدت خلفه، وتحركنا في أنحاء منطقة وسط البلد حتى وصلنا أمام عقار قريب من المقهى.

أوقف عاصم الدراجة وصعدنا سويًا إلى الدور الثالث أمام شقة رقم (13)، كان منزل شاب يُدعى (نادي)، عمره يتراوح بين الثلاثين عامًا أو أكثر.

ولسوء حظنا، جئنا في الوقت الخاطئ.

احتسب نادي أننا جئنا لمواساته في فراق شقيقته (داليا) التي توفيت في حادث مريع منذ ثلاثة أيام، ولم يدرك أننا جئنا لشيء آخر، لكن عاصم احتوى الموقف ولم يفصح لصديقه عما جئنا من أجله.

رحب بنا نادي، صديق عاصم، وطلب منا الدخول.

جلسنا على مقاعدنا نتبادل النظرات أنا وعاصم، وكانت أعيننا تتحدث، حتى جاء نادي بالقهوة السادة وقدمها لنا، ثم جلس أمامنا، وفي عينيه دموع تريد أن تقفز لتملأ الأرض بمياه ساخنة، وتغمر الشوارع، وتحكي عما رأته من حزن.

لكن نادي كان يحبس كل ما بداخله من حزن، حتى قال له عاصم وهو يأخذ رشفة من فنجان القهوة:

- "ماذا حدث لشقيقتك؟!"

كان هذا السؤال تصريحًا سريع القبول لسقوط دموع نادي في أعماق سجاد منزلهم، صمت نادي قليلًا ثم قال:

- "منذ الصغر وأنا وداليا نتشاجر على من سيحضر جنازة الآخر أولًا، وكانت تقول لي: يا نادي، إذا فارقت الحياة قبلك، لا تتركني في قبري وحيدة في أولى ليالي القبر، أنا أخاف من الظلام ابقَ معي حتى مطلع النهار.

كانت عائدة من العمل وتقف تنتظر حافلة تنقلها إلى المنزل، لكن شاء القدر أن تتأخر الحافلة حتى جاء سائق سيارة أجرة بغيض، يشرب الكحوليات والسجائر الممنوعة، فاصطدم بها ودفعها بعيدًا، لتفارق داليا الحياة، وكذلك السائق.

طلبت من المشرحة التي كانت تحتجز جثة السائق، وهي نفس المشرحة التي أعمل بها، أن تُشرح جثمانه لنتأكد من أنه كان يشرب الكحوليات والسجائر لمعاقبة عائلته، لكن المشرحة رفضت وقالت إنه لا فائدة من التشريح لأن سبب الموت معروف.

اتهموني بالجنون، وقاموا بفصلي نهائيًا، وكتبوا عني تقريرًا يمنعني من العمل في أي جهة أخرى، لكنني سأنتقم منهم بعد الانتهاء من عزاء داليا."

ابتسمت قليلًا وأنا أنظر إلى عاصم، لكن قاطع نادي تلك الابتسامة وقال:

- "كيف علمت بوفاة داليا يا عاصم؟!"

ارتبك عاصم قليلًا ووضع فنجان القهوة أمامه:

- "في الحقيقة، أنا ونور صديقتي لم نأتِ لعزاء شقيقتك، ولم أكن أعلم أنها فارقت الحياة."

- "أعتذر عن السؤال، ولكن لماذا جئتما؟!"

- "أريد منك مساعدة في شيء يخص مشرحتك."

- "ما نوع المساعدة؟!"

- "ستشرح لك نور، صديقتي، ما الذي نريده."

نظر عاصم إليّ، وبعد صمت دام لثوانٍ قلت ببلاهة:

- "أريد منك أن تُشرح لنا هذه العظام في مشرحتك لنعرف هوية صاحبها."

نظر نادي إلى العظمة التي أخرجتها من حقيبتي، وظهرت على وجهه ابتسامة صامتة تخبئ أقوالًا غير مريحة، ثم تابع بعدها:

- "من دون أن أسأل كيف جلبتِ هذه العظمة، فالأمر ليس بهذه السهولة.. تمنعنا أشياء كثيرة، وهذا النوع من التشريح يحتاج إلى عالم أنثروبولوجيا ليتعرف على الجنس من خلال الحوض لدى الجثة، وهذه العظمة وحدها لا تفيد، يجب جلب الجثة كاملة والعمل عليها."

بعد سماع كلام نادي شعرت كأن ماءً باردًا سُكب على وجهي فتجمدت، انخفض معدل الحماس، وما يطلبه نادي يصعّب عليّ المهمة. لا أعلم كيف سأُخرج الجثة كاملة لهم، لكن يجب عليّ أن أفكر!!

- "وإذا جلبتُ لك الجثة كاملة، هل ستساعدنا؟!"

- "الأمر ليس بهذه السهولة يا آنسة نور..

أولًا، ليس لديّ معدات للعمل على هذه الجثة، وثانيًا، وهو الأهم، علمت من كلامك أننا نعمل في الخفاء، بمعنى أننا سنعمل على الجثة في منزلٍ ما. وبالتأكيد لن أعمل عليها هنا في منزلي ولا في منزل عاصم، سنقوم بالتشريح في منزلكِ."

لاحظ عاصم تشوش عقلي من إجابة نادي، ثم نهض من مكانه وقال:

- "سنُجهّز الجثة ونتصل بك لتقابلنا، لكن لا تفصح عن هذا السر يا نادي، إنه بيننا فقط."

أومأ نادي برأسه، ثم قام بتوصيلنا إلى الخارج.

- "في انتظار مكالمتك يا عاصم."

صافح الاثنان بعضهما، ثم نزلنا وتوقفنا أنا وعاصم أمام الدراجة قليلًا، ولاحظنا نادي يراقبنا من نافذته.

- "هل تثق بصديقك هذا؟!"

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

- "لا تقلقي، لن يفشي السر، لكن كيف ستجلبين الجثة من عند صديقتك وهي تخبئها؟!!"

- "لا تقلق، أنت الآخر، سأجلبها إلى منزلي لكي نشرحها."

- "من الواضح أنني أتعامل مع محققة ليست سهلة."

قالها عاصم وهو يصعد على دراجته، قمت بضربة خفيفة على كتفه قائلة:

- "احذر مني، أنا لست سهلة كما تراني."

- "أعلم أيتها المحققة."

غادرنا أنا وعاصم من أمام منزل نادي، ثم وصلنا أمام منزلي.

ظل عاصم ينظر نحوي حتى بلغت سلالم العقار، ثم غادر.

وقبل أن تطأ قدماي الدرجات، ألقيت نظرة على حارس العمارة، عم (ربيع)، لكن باب غرفته كان مغلقًا، يبدو أن النوم قد غلبه.

كنت أريد أن أسأله عن عم حامد، صاحب العقار، أشعر أنه يخفي سرًا؛ كان مرتبكًا عندما دفعت له إيجار الغرفة.

من الممكن أن تكون تلك الجثة تخصه، وسوف أكشف ملعوبه قريبًا.

أكملت طريقي وصعدت نحو غرفتي لألحق بأمي، أعلم أنها تنتظرني لوجبة العشاء، وعندما وصلت إلى الغرفة استقبلتني استقبالًا حارًا:

- "تأخرتِ كثيرًا يا نور، وتعلمي أنني لم أستطع الأكل دونك."

- "قبل أي شيء، أعرف أنني تأخرت، لكنني سأحزن إذا تناولتِ العشاء بدوني."

- "كنت أنتظرك، لم أفعلها أنتِ تعلمين."

ركضت نحوها لأعانقها، فأنا بدونها كالجسد العاري الذي تنقصه الثياب. تحاربني كل يوم هواجس وأفكار عن فقداني لأمي، إحساس بأن شيئًا ما سيأخذها مني، شعور صعب لا أحتمل تحمله.

إنه قاس.. قاس جدًا أن تشعر بمغادرة أكثر شيء يستعمر قلبك.

أحضرت الأطباق أمام أمي لنتناول الطعام سويًا، وأثناء التهام الطعام ومشاهدة التلفاز ألقيت عليها سؤالًا لم تحبه:

- "أبي ألم يتصل بك؟!"

- "تعرفين أن هذه السيرة لا أحبها."

- "أعلم، لكن إلى متى سنظل لا نعلم عنه شيئًا؟!"

وضعت أمي الطعام أمامها ثم نظرت إلي:

- "هو من يتحمل مسؤولية اختياره، اختار مغادرتنا وهو يعلم أننا بلا رجل."

توقفت عن الطعام، ثم قولت لها:

- "ولهذا السبب لم نسأل عنه، لم نعرف إلى أين ذهب، على الأقل يا أمي نعلم منه لماذا غادر بتلك الطريقة، أنا أبحث عنه كل يوم ولم أصل إلى نتيجة."

- "ولن تصلي إليه، هو بالنسبة لي ميت."

- "أعلم كم المعاناة التي تحملتها بعد مغادرته، لكن دائمًا وجود رجل في حياتنا شيء مهم."

- "والدك كان كل شيء بالنسبة لي."

قالت أمي هذه الجملة وعيناها تنزفان بالدموع، ثم أكملت:

- "كان يعلم أنني لن أتحمل مغادرته بهذا الشكل، دائمًا كان أصدقاؤه يسيطرون عليه بأفكارهم السامة، وهو يركض خلفهم ويضع كل ما يملك من مال ليشاركهم في مشاريعهم الخاسرة."

- "ثم يعود إليّ راكعًا لأنه خسر كل أمواله ويريدني أن أسامحه، وكنت ساذجة وأسامحه من أجلك، ومن أجل أن نعيش حياة هادئة."

- "لكنه كان يحب حياة المطاردين، يختبئ في الجحور مثل الفئران خوفًا من الإمساك به، كان تاجرًا.. يتاجر في كل شيء خاسر؛ لأنه فاشل مثل أبيه."

- "هل جدي أيضًا كان فاشلًا؟!"

- "نعم، أغلقي هذه السيرة، لا أحب سماع أسمائهم."

أغلقت سيرة أبي التي لا تحبها أمي، وبعد الانتهاء من الطعام ذهبنا إلى الفراش.

ركضت الأيام سريعًا، واحدًا تلو الآخر، وكنا أنا وعاصم نتحدث كل يوم، اقتربنا مرة أخرى من بعضنا، وكان يسألني عن حياتي اليومية وكيف تسير، وكان يسأل أيضًا عن الجثة، وهل قمت بتجهيزها أم لا.

لكنني لم أجب عليه حتى جاء اليوم الذي سأخرج فيه الجثة من خزانة الثياب وأضعها خارجًا ليأتي المشرّح (نادي) ويقوم بفحصها.

***

يوم الأربعاء، الواحدة بعد منتصف الليل..

تركت أمي نائمة في فراشها، واتجهت نحو غرفتي الثانية لأقوم بتنظيف الغرفة جيدًا استعدادًا لاستقبال الجثة الغامضة.

كانت الغرفة تعاني من ضيق بسبب كثرة الكراكيب المبعثرة في كل مكان.

وضعت جميع الصناديق في الزاوية، وبجانبها بعض التماثيل الثقيلة، وقمت بإخراج كمٍّ هائل من الأتربة. وبعد ساعة واحدة انتهيت، وتحولت الغرفة من مكانٍ مليء بالكراكيب إلى غرفة خالية تمامًا.

وضعت أيضًا على أرضية الغرفة حصيرة خضراء، وعليها طاولة عالية جلبتها حديثًا من النجار.

في ذلك الوقت الذي لم أكن أقترب فيه من الغرفة، كنت قد أوصيت أحد النجارين بصنع طاولة مرتفعة تشبه المغسلة التي يوضع عليها الميت.

استخدمتها لوضع عظام الجثة عليها، ومعها طاولة صغيرة الحجم تشبه طاولة السرير الجانبية.

وضعت كل شيء في منتصف الغرفة، ثم اتجهت نحو خزانة الثياب لأجلب الجثة.

وقفت أمامها، وقبل أن أفتح الخزانة سمعت صرخة عالية قادمة من الأسفل، وتحديدًا من منزل (حامد) صاحب العقار!!

كان سبب تلك الصرخة زوجته، السيدة (حنان)، تبكي على ما حدث لـ(نوال)،

شقيقة الحاج حامد، التي فارقت الحياة بسبب مرض خبيث تمكّن من جسدها. سمعت الحاج حامد وهو يطلب من (ربيع) حارس العمارة أن يقوم بتبليغ جميع السكان بموعد دفن الجثة ومكان المسجد الذي ستقام فيه صلاة الجنازة، كان مسجد هاشم يبعد عن العقار بضعة شوارع.

غادرت غرفتي وأغلقتها جيدًا قبل صعود ربيع. ركضت نحو الغرفة التي تجلس فيها أمي، وبعد دقائق وصل ربيع إلى أعلى العمارة أمام غرفتي ليبلغني بتلك المعلومة التي كانت قد وصلتني بالفعل.

ظهر على وجهي الاندهاش من المعلومة التي قالها ربيع. لا أعلم لماذا أصابني شعور بالرهبة عند سماع هذا الخبر؛ دائمًا عندما أسمع سيرة الموت يحيطني الخوف والفزع، وأتخيل نفسي واقفة أواجه العالم بمفردي.

في صباح اليوم التالي، ارتديت ملابسي المعتادة، ووضعت طرحة سوداء على رأسي، وذهبت إلى عم (حامد) لأواسيه في وفاة شقيقته.

قمت باحتضان السيدة (حنان)، وبعد تغسيل الجثة تحرك الجميع نحو مسجد هاشم للصلاة.

وبعد الانتهاء من صلاة الجنازة، توجهنا إلى مقابر المعبود لدفن الجثة. كان الوصول إلى المدافن الخاصة بهم سهلًا لقربها من بوابة الدخول الرئيسية للمقابر.

قام حارس المقابر (ثروت) بفتح القبر قبل وصولنا، واستقبل الجثة بتلاوة الأدعية، ثم قام أقارب المتوفاة بوضعها في الأسفل وصعدوا مرة أخرى ليغلق القبر عليها ثروت.

قام شاب صغير السن بقراءة بعض السور القرآنية لها. وضعت مبلغًا صغيرًا في يد ثروت، وتعمدت أن أظهر له وجهي على أمل أن أحتاج إليه لاحقًا.

عاد الجميع إلى منازله، وقام ربيع بوضع بعض الكراسي الحديدية أمام العمارة لنصب صوان العزاء. وقبل صعودي إلى غرفتي سمعت صوت السيدة حنان، زوجة الحاج حامد، تسبّه لأنه تسبب في قتل شقيقته.

تعجبت مما سمعته، لكنني لاحظت ضحكة عارمة على وجه ربيع، كاد صداها أن يصل إلى مسامع الحاج حامد. اتجهت نحو ربيع لأعرف منه سبب تلك الجلبة التي أحدثتها حنان زوجة حامد.

اقتربت من ربيع وهمست له قائلة:

- "لماذا أسمع باستمرار السيدة حنان تردد هذه الجملة لزوجها يا ربيع؟!"

أجاب:

- "لأنه رجل فاقد الوعي يا أستاذة نور."

- "كيف يعني فاقد الوعي؟!"

- "لا، هذه الأخبار تتطلب الكثير، ومن أجل الإفصاح عنها يجب أن تزوديني بشيء ما."

لم أدرك أن ربيع بتلك الخباثة؛ فلكي يطلعني على خبايا الحاج حامد طلب مني مقابلًا، وكان ذلك المقابل ثمينًا جدًا، ولا أعلم إن كنت سأستطيع جلبه أم لا!

غادرتُ من أمام ربيع بسبب عاصم الذي طلب مني مقابلته الآن على مقهى الباشا، ليقول لي شيئًا مهمًا.

في غضون دقائق قليلة وصلت أمام المقهى، أرى عاصم يجلس على إحدى المقاعد ومعه صديقه (نادي) يتحدثان في شيءٍ ما.

اقتربتُ منهما وجلستُ بجانب عاصم قائلة:

- "ما هو الشيء الذي لم ينتظر حتى الغد؟!"

قال:

- "نادي يقول لي إنه تواصل مع صديق جاء من أمريكا في إجازة عائلية، وهو يفهم في علم (الأنثروبولوجيا)، ويريد أن يتفحص الجثة قبل مغادرته."

- "نور: ما مدة تلك الإجازة؟!"

- "نادي: أسبوع."

صمتُ قليلًا أثناء حديثهم، ثم نظرتُ إلى نادي قائلة:

- "قم بجلب صديقك غدًا، وعاصم يعلم العنوان الخاص بي وسوف يخبرك به، وأنا سأكون جاهزة بالجثة في غرفتي وفي انتظاركم."

@ART_OF_BOOK

غادر نادي بعد سماع تلك الجملة، إذ يربطه موعد مقابلة مع صديقه القادم من الخارج. وبعدما اختفى نادي عن مرمى البصر، نظر عاصم إلي ليقول بعض الكلام الذي يحبسه في حنجرته:

- "هل يسعفك الوقت لتجهيز الجثة؟!"

- "نعم، سوف أتدبر الأمر، أنا أريد طلب شيء منك!"

- "ما هو؟!"

- "أريد مساعدتك في جلب بعض الأشياء من منزل رجل غريب."

- "من هو الرجل، وما نوع تلك الأشياء؟"

وضعتُ شفتي بين يديّ وانحنيت برأسي أمام عاصم، وتابعت قولي:

- "تلك الأشياء هي السجائر الممنوعة!"

يبدو أنني وضعتُ خنجرًا في كبد عاصم حين سمع بالسجائر الممنوعة، فظل ينظر يمينًا ويسارًا خوفًا من أن يسمعنا أحد من المارين.

- "من أين تجلبينها؟!!"

قالها بصوتٍ خافت، كاد صوته يقترب من صوت السلاحف إذا كانت تتكلم.

فعلتُ مثله وقلتُ له:

- "من منزل رجل أعلم أنه يخبئ كمية كبيرة منها."

- "وماذا تفعلين بها؟! حيازتها معنا جريمة في هذا الوقت."

- "طلبها مني ربيع، حارس العمارة."

- "من ربيع؟!"

- "حارس العمارة الذي سوف يساعدني في جلب المعلومات عن حامد صاحب الغرفة التي أجلس فيها."

- "ولماذا تبحثين خلف ذلك الرجل؟!"

- "أعلم أنه يخبئ شيئًا."

- "نور، نحن نبحث خلف جثة مجهولة، ليس لدينا وقت للبحث خلفه."

- "هذا البحث يفيد في معرفة هوية الجثة."

- "كيف؟!"

- "سوف أعلمك في وقتها، أنت لا تمانع؟!!"

- "لا أمانع، وسوف أساعدك، لكن متى؟!"

- "بعد فحص الجثة غدًا."

***

وفي بعض الأحيان العبث مع الأموات يجلب الجنون والهلوسة المستديمة، تلك ما حدث معي عند إخراج الجثة المجهولة من الخزانة، ظهرت الرائحة الكريهة التي نعلمها جميعًا، يبدو أنني سوف أواجه الأشباح من اليوم، عندما أخرجت الجثة خرجت معها بعض الأرواح التي لم أرها لكن أشعر بها تقف بجانبي، شعور الخوف تملك مني بسبب ذلك ضوء الهاتف الذي غلق بفرده دون الأمر مني، والعجيب أيضًا في هذا الحدث! ظهر ضوء أصفر قادم من خلفي، فهي لمبة الجاز التي لم أرها من قبل!

تقدمت نحوها وجلبتها لتضيء لي الغرفة المعتمة، ووضعت لمبة الجاز على الطاولة، ثم ارتديت القفازات ووضعت يدي على مقبض الخزانة لفتحها!!

خرج صوت مثل احتكاك أظافر القطة في الحائط، تذكرت الصوت وقشعرت قليلًا، أعلم أيها القارئ بإحساسك الآن أنه يقشعر البدن، لهذا كتبتها، لكن ليس هذا المرعب، الأكثر رعبًا من احتكاك الأظافر أنني لم أرَ الجثة في الخزانة!

خرج من الخزانة هواء شديد البرودة تتطاير معه خُصيلات شعري، وتتحرك لمبة الجاز من على الطاولة وتسقط في الأرض ليقوم حريق هائل في الغرفة أدى إلى إفاقتي من النوم!

كان كابوسًا حارًا، عند الاستيقاظ رأيت يدي ممدودة إلى الأمام، يبدو أنني كنت أطلب النجدة من الجثة، رأيت أمي تنظر لي:

- "هل هذا كان كابوسًا أم راقصة استعراضية جديدة؟!"

- "لماذا تفتحين النافذة هكذا تجلب لنا هواء شديد..؟!"

- "أنتِ من فعل ذلك."

نظرت إلى هاتفي، إنها تقارب الرابعة عصرًا، موعد حقنة السرطان!

نهضت من مكاني مسرعة نحو الثلاجة، قمت بفتحها وجلبت حقنة اللقاح المصنوع حديثًا. صدر قرار من وزارة الصحة العالمية باستكشاف لقاح لعلاج السرطان، يجب على كل الدول بتقديم طلب لأخذ بعض الجرع والأعداد المطلوبة لشفاء المرضى المقيمين بالبلد، وعلى كل مواطن يعاني من ذلك المرض أن يسجل بياناته على موقع وزارة الصحة المصرية، وتقام قرعة كل شهر على الأسماء المسجلة بالموقع، ومن وقع عليه الدور في أخذ الجرعة يتم إرسال إليه الموعد المحدد ليستلم جرعته التي تطيح بالمرض بعيدًا، لكن الجرعة يجب أن تستخدم في موعدها مضبوط كل يوم حتى يتم شهرين كاملين، ومن يخالف موعد أخذ الجرعة لا يتم شفاؤه.

وأخيرًا وبعد سنة من تسجيل بيانات أمي على موقع الوزارة وصلت رسالة لنا بوقوع القرعة علينا. جهزت الجرعة واقتربت من أمي وقمت بحقنها:

- "متى أتخلص من هذا المرض؟"

- "قريب يا أمي، قريب، هذا أول أسبوع من استخدام الجرعة، يجب علينا الصبر حتى انتهاء المدة."

اقتربت مني أمي أكثر وقالت وهي تفر من عينها الدموع:

- "إذا قابلتِ ربًا كريمًا، اوعديني أنكِ لا تنسيني وتزوريني في قبري."

هذا شعور الوداع لم أحبه.. فراق بغيض يأتي في الوقت الذي أحتاج فيه الشخص أكثر من أي وقت آخر، يأتي ليقول لي أنتِ وحيدة.. أنتِ مثل الغصن الذي تخلى عنه جذع شجرة وقت قدوم الإعصار.

- "أنا لم أقدر على غيابك، لم أتخيل أنني أتنفس في الحياة بدون وجودك فيها، فأنا أعيش لكِ، وإن لعب القدر لعبته سأرافقكِ الرحلة."

قلت هذه الكلمات وأنا أحتضنها، أضمها إلى صدري لترد الروح فيه، فهي تشبه الأكسجين في قاع البحر.

@ART_OF_BOOK

مسحت دموعي ثم تابعت:

- "كفاية حزن، أنا على موعد مع أصدقائي، لا أريد مقابلتهم هكذا."

- "من هم؟!"

"بعض الأصدقاء من العمل، سأقوم بضيافتهم في الغرفة المقابلة، أريدك أن ترتاحي، أعلم أن تلك الجرعة تخلدك للنوم، تسندي علي لكي تصعدي لمكانك."

بعد دقائق وصلت لي رسالة من عاصم يقول لي إنه يقترب من المنزل ومعه نادي وصديقه (عارف) عالم (الأنثروبولوجيا)، لكن انقطع الاتصال بالإنترنت بعد رسالته.

تدق الساعة السادسة مساءً، ركضت سريعًا نحو الغرفة الأخرى، أنا حتى الآن لم أخرج الجثة من الخزانة، جهزت بعض القفازات أعلم أنهم سيحتاجونها، وقمت بإخراج الجثة التي تفككت جميع أجزائها، جلبت كل قطعة بهدوء تام ووضعتها على الطاولة العالية التي تقف في منتصف الغرفة، جلبت جمجمة الرأس ثم القفص الصدري ثم عظام الأيدي وأخيرًا النصف السفلي للجثة، وضعتهم بالترتيب ليتشكل شكل الجثة كاملًا، يقترب عدد العظام الموضوعة على الطاولة من مائتي عظمة، إنه رقم كبير حقًا.

قبل أن أجلس لأخذ قسطًا من الراحة، قلت لنفسي:

"لماذا لم أستعن بكاميرا فيديو لتصوير ذلك التحليل والتشريح؟!"

تذكرت تلك الكاميرا التي اشتريتها مؤخرًا ولم أستخدمها إلا لبعض الصور أنا وأمي، وتختبئ أسفل السرير، اتجهت نحو الغرفة ورأيت أمي غارقة في النوم، رفعت الفراش المحشو بالقطن ورأيت كاميرا الفيديو موضوعة في صندوق كرتوني قديم عفا عليه الزمن، نحن في عصر التكنولوجيا الآن، علقت الكاميرا حول رقبتي، ووضعت الفراش إلى موضعه السابق، وعدت إلى الجثة مرة أخرى.

وأثناء تجربتي للكاميرا، صدر صوت من الخارج! إنه عاصم وأصدقاؤه:

"نور، يا نورا!"

"أنا هنا يا عاصم، اتفضل."

وقف عاصم أمامي هو وأصدقاؤه، وذلك الغريب الذي وصل من أمريكا!

لم يظهر عليه معالم العيشة في الخارج، أعلم أن الذين يعيشون في الخارج يظهر على وجوههم البياض الشاسع وارتداء النظارات والملابس المرتبة مع بعضها، لماذا ذلك الشخص مهرول على نفسه؟! فهو أشبه بالمتسولين، هكذا أكرمته عندما قارنته بالمتسولين فهو أقل بكثير حتى تلك الحقيبة التي يحملها في يده تشبه كيس بلاستيك خارج من سلة قمامة، قاطع عاصم أفكاري بقوله:

"سوف نقف هنا طوال اليوم، لم ندخل؟!"

"آسفة، تفضلوا، كيف نجوتما من عزاء شقيقة حامد وربيع حارس العمارة؟!"

"نحن لم نقابل حارس عمارة ولا عزاء أيضًا."

انقبض وجهي قليلًا وتابعت:

"من الممكن أن العزاء في مكان آخر، أم ربيع فإنه دائمًا ينام ولم ينتبه لعمله كحارس، هذه هي الجثة قبل أي شيء، آسفة لا يوجد مقاعد فأنا زائرة جديدة."

قلت هذه الجملة وأنا أشاور بإصبعي على الجثة الهامدة في قبرها الجديد.

فقال عاصم:

"لا يوجد مشاكل، نحن جئنا لنعمل."

نادي:

- "يجب أن نفحص الجثة."

- "تفضل."

أخرج (عارف) ذلك الغريب الأطوار قفازات سوداء من حقيبته وقام بارتدائها، وأخرج عدسة مكبرة ثم اقترب من طاولة الجثة ليتفحصها.

بدأ النظر نحو ساقيها، يضع أصابعه على العظام وهو ينظر من العدسة.

قمت بتشغيل الكاميرا للبدء بالتسجيل، نظر لي غريب الأطوار بوجهه المتخشب، ثم التفت بوجهه لنادي وقال:

"لم نتفق على ذلك التسجيل."

"نور: لماذا؟!"

"وجودنا هنا ومع تلك الجثة يعتبر جريمة، والعمل على جثة خارج المشرحة غير قانوني، وأنتِ تريدين التصوير؟ لا يمكن."

قال نادي هذه العبارة وهو يقترب ليضع يديه على عدسة كاميرا الفيديو خاصتي.

"نور: سوف أغلقها."

وضعت الكاميرا على الطاولة الصغيرة ثم تراجعت قليلًا إلى الوراء ليكمل عارف عمله.

يتفحص المفاصل جيدًا، وينظر إلى الكاحل، ويكتب في نوتة صغيرة:

"المفاصل تتكون من ثلاث عظام متصلة ببعضها."

ثم عاد مرة أخرى وفرك بأصابعه على مقدمة القدم، فعلها عدة مرات، وعاد للنوتة وكتب:

"القدم بها سلاميات متصلة بمشط القدم ويتقابلان في تكوير القدم."

ثم ضغط ضغطة جيدة عند منتصف القدم وكتب في النوتة:

"به أيضًا خمسة عظام رسغ."

ابتعد قليلًا بعدسته عن الجثة وسجل في النوتة الصغيرة العدد الهائل من العظام، ثم انحنى مرة ثانية، لكن هذه المرة منحنيًا عند يد الجثة، وبجانبها كتب:

"به معصم يتكون من ثمانية عظمة صغيرة ويحركها بعض من عظام الإصبع."

ارتفع أعلى قليلًا ليفحص مفصل الكوع وسجل في كراسته الصغيرة:

"الكوع هو التقاء العظام بشكل رباني ولا توجد كسور أو ندبات."

ثم قفز بعدسته نحو الجمجمة، وبدأ بفحص الرأس من الخارج، ووضع سبابة يده اليسرى على أسنان الجثة وقام بفتح الفم، ونظر بتمعن داخله ليتأكد من شيء.

وبعد إنهاء الفحص، فرد ظهره المنحني وترك العدسة المكبرة من يديه وخلع القفازات وقال:

@ART_OF_BOOK

- "هذه الجثة بالغة، فهي تخص شخصًا كبيرًا في العمر، عمرها يتراوح بين الخمسين وخمسة وخمسين عامًا."

- "وكيف علمت؟!"

- "هذا سر مهنتي، لكن لم أبخل عليك به، عندما تفحصت مفاصل العظام للجثة وجدت مؤشرات التهاب المفاصل على العظام، هذا الالتهاب يسبب تآكلًا ملحوظًا في مفاصل العظام، وهذا يؤكد أن تلك الجثة كانت تعاني من التهاب في المفاصل، ومن المؤكد أن التهاب المفاصل يأتي لكبار السن، لكن هذا ليس السبب الوحيد الذي تأكدت منه، السبب الآخر هو عدد العظام الموجودة الذي يتخطى عددها مائتي عظمة وأكثر، ولكي نتأكد من عمر الجثة بالتحديد يجب فحص الأسنان."

عاصم:

- "ما المشكلة؟ افحص الأسنان."

ظهرت ضحكة ساذجة على وجه عارف وقال:

- "لم أتفق مع نادي على ذلك الفحص الكبير، لكن من الممكن أن أتفحص الجثة جيدًا وأعلمك بأهم المعلومات التي ستحتاجها، وهي مثل العمر والنوع وسبب الوفاة أيضًا، لكن هذا يتطلب شغلًا كثيرًا وعدةً للعمل على الجثة، والأهم من كل هذا المقابل الذي أعمل لديه."

ظهر على وجهي أنا وعاصم الدهشة! كنت أتخيل أنه يفعل هذا من باب المساعدة والشهامة، لكن يبدو أن روح الشهامة انخفضت في هذا العالم.

نور:

- "وما هو المقابل؟"

- "لا أحتاج إلى المال، لكن أطلب الكثير من السجائر المصرية الممنوعة."

عاصم:

- "هل السجائر تم منعها أيضًا في أمريكا؟"

- "ليست ممنوعة مثل هنا، لكن في الأيام المقبلة سوف تُباع سرًا بسبب قلتها."

نور:

- "كيف ستغادر بها إلى الخارج، فهي هنا مثل المخدرات أو أكثر؟"

- "اجلبيها لي وأنا سوف أخرجها."

قالها عارف وهو يضع أدواته في الحقيبة، ثم سحب بيده نادي وغادروا الغرفة، وتبقى عاصم يقف بجواري نفكر ماذا سنفعل فيما طلبه؟

- "أهؤلاء هم أصدقاؤك الذين جلبتهم ليساعدونا!"

قلت هذه الجملة وأنا ألتقط الكاميرا التي وضعتها على الطاولة الصغيرة.

"يبدو أن كلمة لله للوطن ليست موجودة في قاموسهم، ماذا سنفعل أيتها المحققة؟!"

علّقت الكاميرا في رقبتي ثم فردت قماشة بيضاء على الجثة بالكامل.

- "لا تنسَ اتفاقنا أمس، والآن بعد عرض عارف لنا يجب أن نقتحم منزل الرجل الغريب لجلب كمية كبيرة من السجائر الممنوعة."

- "أنا لم أعارضك في هذا الأمر، هل جهزتِ خطة للاقتحام؟"

نظرت له ورأسي منحنية إلى الأسفل وقلت بصوت خافت:

- "لا!"

- "إذًا سنقتحم المنزل لا محالة، فأنا أعشق التورط."

- "تعلم يا عاصم، أنت الشخص الوحيد الذي يشاركني مصائبي."

- "هل هذا مدح أم ضعف شخصية؟!"

طرح عاصم سؤاله وهو يتسند بظهره على الحائط.

- "هذا مدح."

مددت يدي نحوه لكي ينهض عاصم ونتحرك إلى المنزل المراد اقتحامه، قائلة:

- "انهض، ليس لدينا وقت."

- "الساعة الآن السابعة يا نور، يجب أن ننتظر حتى العاشرة، على الأقل نهجم

على الرجل وهو نائم، أحب المغامرة لكن ليس السقوط في التهلكة."

- "سوف ننتظر كثيرًا هكذا."

- "لا مشكلة طالما نجلس سويًا."

- "هل سبق لك وقمت بسرقة منزل من قبل؟!"

تسند عاصم برأسه إلى الوراء ثم نظر إلى الأعلى وقال:

- "فعلتها مرة واحدة وأنا في سن الثمانية أعوام."

- "سرقت منزلًا؟"

- "لا، كان متجر بقالة عم حمودة، يفيق كل صباح ويفتح دكانه الصغير، كان يعتبر منزله أيضًا؛ لأنه دكان داخل منزل.. يخرج منضدة صغيرة يضع عليها بعضًا من البسكويت والكيك، كان دائمًا ما يعجبني تلك الحلوى التي يسمونها (البخت)، وهي مثل الآيس كريم لكن ليس بداخلها مثلجات."

- "ماذا يوجد فيها؟!"

قلت جملتي وأنا أجلس بجانب عاصم.

- "خالية من المثلجات ومحشوة بالعسل الأسود، وفي القاع توجد عملة معدنية. إذا وجدتِ تلك العملة المعدنية تصبحين من الملاك الأثرياء. في يوم ذهبت لعم حمودة وجلبت البخت، لكن للأسف كنت من الفقراء ولم أكسب، وليس لدي مال آخر لأشتري. لاحظت أن عم حمودة منشغل مع الأطفال في البيع، قمت أنا بخفة يد وسرقت واحدة من تلك البخت، وأصبحت من الملاك الأثرياء الذي بحوزته العملة المعدنية."

- "ما كان ثمن تلك العملة؟!"

نظر لي عاصم بوجه ضاحك وقال:

- "نصف جنيه!"

- "كل هذه التضحية والإثارة من أجل نصف جنيه."

- "في ذلك العصر كان له ثمن بالنسبة لطفل يبلغ من العمر ثمانية أعوام."

- "طفل لم تربيه أمه."

ابتسم عاصم وأكمل:

- "المشكلة الأكثر تعقيدًا، عندما أجلب البخت بمالي الخاص أخسر، وعندما أقوم بسرقته أكسب، لا أعرف هذا السر."

- "إنه الشيطان يعلمك السرقة من الصغر."

ضحك عاصم بصوت عالٍ ثم نظر نحوي ليراني صامتة.

- "لماذا تغيرت ملامح وجهك؟"

- "تذكرت والدي، عندما نجلس ونحكي سويًا، الآن لا أعرف أين هو أو ماذا يفعل."

- "سوف يظهر عما قريب، لا تيأسي."

- "هل من الممكن أطلب منك طلبًا آخر يا عاصم؟"

نظر لي بأطراف عينه قائلًا:

- "أصبحت الحارس الخاص إليكِ، تفضلي أيتها المحققة."

- "أريد منك أن تبحث عن والدي (صابر الأحمدي)."

- "زادت مطالبك، لكن لا تحملي همًا، سوف أبحث عنه."

قالها عاصم وهو يضع أصابع يديه على وجهي يمسح تلك الدموع الراكضة، ثم أكمل جملته قائلًا:

- "هل أنتِ واثقة أن نجد تلك السجائر عند الرجل، أم كان يخدعك؟!"

- "سوف نعلم قريبًا."

(أخاف أن تكون خدعة، هذا أملي الآن)

قلت هذه الجملة سرًا دون أن يسمعها عاصم. أنا لا أعلم شيئًا عن الاقتحام، سيكون من الصعب التسلل إلى ذلك المنزل، أخشى أن يكشفنا قبل الوصول لمخزنه المليء بالسجائر الممنوعة.

@ART_OF_BOOK

تلك الجثة أطاحت بي بعيدًا عن حياتي اليومية، السعي وراء عملي أصبح من الصعب، كل همي أن أعرف هوية الجثة، تُنسب لمن، ومن هو الذي فعل به هكذا، ولماذا؟

***

في العاشرة مساءًا..

أوقف عاصم درجاته أمام منزل الرجل المبهم الذي يملك كمية كبيرة من السجائر الممنوعة، نأمل أن لا يقوم بخداعي ويصدق في قوله أنه يمتلك كفا هائلًا من السجائر الممنوعة.

شارع خالٍ تمامًا، لا يقف أحد، لا يوجد سوى كلب أسود ينظر إلينا كأنه يعلم إننا نسرق أو سوف نسرق عما قريب، يفكر في النباح علينا لكنه اختار الصمت والجلوس دون إزعاج.

لا أعلم كيف سنتسلق المبنى ذو الطابقين؟! ولا أعلم أين يخبئ الرجل مخزنه من السجائر، ولا أعلم كم شخصًا داخل المنزل، كل هذه الأشياء مجهولة بالنسبة لي ويصعب عليّ معرفتها، وإذا أردت أن أعرف كان يجب عليّ مراقبة الرجل ليلًا ونهارًا وهذا يعوقنا عن تشريح الجثة، فالأمر مطروق للمفاجآت.

اقتربنا من النافذة التي تبعد عن الأرض أقل من المتر، مفتوحة على مصراعيها ويخرج منها ضوء بسيط شبه الطشاش، توقف عاصم وأشار لي إنه سوف يتسلق النافذة، يجب عليّ أن أشبك له يدي ليصعد عليها، وضعت له يدي وهو وضع قدمه عليها وقام بتسلق النافذة ودخل المنزل دون صدور صوت، لكن دائمًا تأتي الرياح بما لا تشتهي به الحرامية.

قبل أن أتسلق إلى عاصم وصل ذلك الكلب الأسود وقام بالنباح ليخرج الرجل صاحب المنزل ويقول:

"كل يوم هكذا لا أعرف طعم النوم من صوتك المزعج، قف أيها الأبلة."

قبل أن يخرج ركضت سريعًا أسفل النافذة أختبئ لكي لا يراني، استمر الكلب في النباح حتى أغلق الرجل النافذة.

لا أعلم أين عاصم وكيف اختبأ من الرجل؟ ولا أعلم كيف سأدخل!

@ART_OF_BOOK

لكن هذه ميزة أن لا تسرق بمفردك، بعد عشر دقائق من غلق النافذة وتجوال عاصم في أنحاء المنزل تأكد أن الرجل يجلس بمفرده، فتح لي الباب الأمامي ودلفت سريعًا إلى الداخل وأغلقته خلفي.

الآن نقف سويًا داخل المنزل وتبقى لنا البحث عن الغرفة التي بها السجائر الممنوعة، انقسمنا أنا وعاصم إلى فريقين للبحث عن السجائر، شخص يبحث في الأعلى وهو عاصم، وشخص يبحث في الأسفل، طبعًا مش محتاجة أقول من هي التي ستبحث في الأسفل، لا يتبقى سوى أنا.

لو كنت مكان الرجل أين ستخبئ تلك السجائر؟! هل في غرفة من الغرف الفارغة وتجعل مفتاحها مربوطًا بحبل معلق في رقبتك، أم في غرفة مزودة بباب خفي في المطبخ، أم في المكتبة الكبيرة التي بها كم كبير من الكتب المملوءة بالأتربة، ومن الواضح أنه لا يقترب إليها لأنه ليس مثقفًا، فهو يعرضها للزوار لكي يعلمهم بثقافته العتيقة.

أقف في مكتبة كبيرة بها كتب بكثرة لا يدخلها الرجل كل يوم، وهو واضح على المنضدة المتسخة التي يوضع عليها أباجورة ليس بداخلها لمبة لتضيء، تلك السجاجيد أيضًا متسخة تحمل أطنانًا من الأتربة ولا يوجد عليها علامات أقدام، يوجد في منتصف المكتبة تلفاز قديم يحمل فضلات الزباب بكثرة، وبجانب المكتبة توجد منضدة صغيرة عليها الأباجورة وبجانبها لقمة من الخبز يأكلها العفن، كل هذه الأشياء تؤكد لك أنه لم يزر تلك المكتبة منذ صدور روايات (العراب)، هو لم يعرف أيضًا من هو العراب.

يدور في عقلي إذا قمت بتحريك أي كتاب من هذه المكتبة الكبيرة سوف يفتح الباب الخفي وأستولي على ما جئت إليه، يتأثر عقلي بأفلام هوليوود.

تسندت على الطاولة أنظر إلى مجسم الكرة الأرضية الموضوع على الحافة أفكر أين يمكنه وضع السجائر!! اقتربت من اليأس، نظرت إلى سقف الغرفة وأغمضت عيني على أمل أصل لشيء لكن لم أصل، فتحت عيني مرة أخرى لأرى شيئًا يلمع أعلى المكتبة، صعدت على السلم الخاص بالمكتبة حتى قبضت على الشيء اللامع، كان مفتاحًا!!

توصلت لخيط مقطوع وليس لطرف الخيط، لا يوجد باب خفي لكي أضع فيه المفتاح، وضعته على المكتب مرة أخرى وأخذت قرار المغادرة لأصعد لعاصم،

عندما وضعت قدمي على السجادة المتربة مرة أخرى صدر صوت مفتعل، نظرت خلفي لكن لا يوجد سوى أنا في المكتبة، من أين صدر الصوت؟! كان يصدر من أسفل قدمي أو بالأدق من أسفل السجاد، سحبت السجادة لأرى بابًا لمدخل قبو!!

توجد غرفة تحت الأرض لكن المدخل مغلق، أعلم أنه المفتاح!! جلبته وقمت بفتح المدخل، ظهر على وجهي علامات الفرح، توصلت إلى السلالم، بعض الدرجات الصغيرة حتى أصل إلى الأسفل.

أقف على مدخل الغرفة لا أرى شيئًا، أتحسس بيدي على مفتاح الكهرباء، وفي أثناء البحث صدر صوت شخص يقول:

"فقدت الأمل أنك ستجلب لي طعام اليوم."

تخشب وجهي من الصوت، فهو صادر من الداخل، من الظاهر أنه يوجد شخص داخل الغرفة المخبأة، في ثوانٍ سريعة توصلت أصابعي إلى مفتاح الكهرباء لتضيء الغرفة كاملًا ويظهر المستور، فهي امرأة تسكن زاوية صغيرة في يسار الغرفة، وجهها شاحب وعظمها بارز وملحوظ، عيناها حمراوان لم تنم ليالي، جسدها منهك بشدة وشعرها مقصف بالكامل أو متساقط، وترتدي عباءة سمراء مقطعة من جميع الجهات.

ركضت نحوها سريعًا ونسيت الشيء الذي أبحث عنه، ثم قبضت على يديها:

- "من فعل بكِ هذه الوحشية؟!"

- "من أنتِ؟!"

قالتها المرأة بهلع وهي تسحب يديها من يدي وتختبئ في الزاوية، اقتربت إليها ووضعت يدي على رأسها الخالية من الشعيرات قائلة:

- "أنا التي سوف أحررك من الإهانة المفتعلة لجسدك."

- "من الذي قال لكِ أريد التحرر؟!"

سقطت كلماتها على قلبي مثل الصاعقة التي تهبط من السماء، جلست أمامها على قدمي ثم قلت لها:

- "تحبين الإهانة من ذلك الرجل!"

- "من أنتِ؟"

قالتها وهي تحتضن يديها في صدرها.

- "هذه فرصة التحرر."

- "اخرجي قبل أن يلاحقك درويش."

- "من هو درويش؟!"

- "زوجي صاحب المنزل."

- "هو الآن نائم لن يسمعنا."

- "إنه خلفك!"

تجمد جسدي من قولها، الآن أحتاج إلى ماء ساخن كي أفيق.

نظرت خلفي رأيت (درويش) الضخم صاحب البطن المنتفخة والعين الواسعة والجسد العريض، ورأيت عاصم يقف بجانبه بوجه مرتعب.

دفع درويش جسد عاصم نحوي وقال:

"كيف وصلتم للغرفة؟!"

"بالصدفة."

"وجودكم هنا أيضًا صدفة؟!"

قالها وهو يمد يديه إلى خصره ويخرج مسدسًا ويوجه فوهته اتجاهنا.

"لا نعلم بأمر القبو، جئنا من أجل السجائر فقط."

قالها عاصم وهو يقف أمامي ويرفع يديه أمام درويش نوعًا من أنواع الحماية.

"أنتم لصوص السجائر الممنوعة."

نهضت من مطرحي واقتربت من عاصم قائلة:

"لا، كنا نبحث عن البعض منها فقط، هذه ليست تجارتنا."

"ماذا فعلتِ بزوجتي؟!"

"كنت أحررها من الاستعباد لتذهب معنا."

"من قال إنكم سوف تخرجون من هنا!"

بدأ يزداد الأمر سوءًا، قام درويش بسحب أجزاء المسدس الموجه نحونا، شهقت أنا وزوجته الملقاة على الأرض، وفي نفس الثانية انقض عليه عاصم قبل أن يطلق سراح الطلقة، لكنه أطلقها!

خرجت بكامل قوتها لتصطدم بعاصم الذي سقط أرضًا من شدة الضربة، احتلت الطلقة الكتف الأيمن، أنظر إلى ذلك المشهد ولم أصدق ما تراه عيناي، فهو كابوس وأريد الإفاقة منه، تصلب جسدي لمدة ثوانٍ بعد إصابة عاصم، ركضت نحوه ويدي ترتعش بشدة ولا يمكنني التحكم بها، صرخت في وجه درويش أطلب منه أن ينقذنا فنحن لسنا حيوانات برية ليقوم بضربنا.

- "لا يوجد في قلبك رحمة."

- "هذا جزاء من يلعب دور البطل."

- "من أين جلبت تلك الوحشية؟!"

صرخ في وجهي وهو يقترب من زوجته وأشار إليها وقال:

- "قولي لهم من أين جلبتها؟! قولي لهم بسبب تحولي إلى ذلك الوحش الجائع الذي يبحث عن لقاح لعينٍ لكي تعيش زوجته حياة كريمة عادية ليس لها أي مميزات أخرى."

- "قدم لهم العون يا درويش، فهم ليسوا السبب في مرضي."

قالت زوجته هذه الجملة وهي شبه تحتضر، صوتها خافت وتتحرك شفتيها بصعوبة، كادت أن تنغمس في النوم وهي تتكلم معنا.

"أرجوك، كلانا لم نكن مجرمين."

قلت جملتي وأنا أنظر إلى إصابة عاصم، تلك الرصاصة التي صنعت تجويفًا في الكتف، يسقط منها الدم على أصابعي، فهي تؤثر عليه، بدأت عيناه تغفل ويداه تفرطان من يدي.

نظر درويش إلى زوجته التي أشارت إليه برأسها للدلالة على مساعدتنا، غادر

قليلاً وعاد بعد دقائق، وفي يديه صندوق لونه أبيض، جلس بجوار عاصم وأخرج بعض الحبات الصفراء ووضعها بين شفتي عاصم، ثم منحني كوب يوجد بداخله بعض الماء وقال لي بحدية:

- "أعطه بعض من الماء لتنزلق الحبة في معدته لتسكن بعض الألم."

قمت بتنفيذ طلبه في ثوانٍ، أكمل درويش تنظيف الجرح من الخارج ثم جلب من الصندوق ماسك (ملقاط) وبدأ في إخراج الرصاصة الغاطسة في قاع الكتف، تأوه عاصم بسبب إخراج الرصاصة، وبعد محاولات باءت بالفشل، أخيرًا نجح درويش في عملية نزع الرصاصة من كتف عاصم، وضعها بجانبه وهي مليئة بالدماء، ثم قام بقص الجلد الملوث من الخارج ونظف الجرح جيدًا، وبدأت عملية الخياطة التي أدت إلى صراخ عاصم والجز على أسنانه ليتحمل ثقوب الإبرة.

انتهى درويش من إخراج الرصاصة وخياطة آثارها وقال وعينه موجهة لي:

- "بعد نصف ساعة من الآن يمكنك الرحيل أنتِ وزوجك."

لا أعلم لماذا لم أقم بمعارضته على كلمة "زوجي"! ولا أعلم أيضًا ماذا سنفعل في تلك السجائر التي جئنا لأجلها ولم نحصل عليها.

لكن صدر مني بكل تلقائية كلمة ليتعجب منها درويش:

- "والسجائر؟!"

طاح بيديه في وجهي قائلاً:

- "تريدين سرقة أملاكي أيضًا؟ لا يكفيكم ما فعلتموه في زوجتي والخراب داخل منزلي!"

- "جئنا إلى منزلك بسبب هذه السجائر، ولا يمكننا المغادرة بدونها."

- "هل هذا تهديد أم ماذا؟! يمكنني خلق تجويف مثله في كتفك أيضًا إذا رغبتِ!"

- "أعلم أن زوجتك تعاني من مرض السرطان، يمكنني مساعدتك."

قلتها وأنا أسحب ساقي من أسفل رأس عاصم وأنهض أمام درويش وأكمل حديثي معه:

- "يمكنني إثبات لك حسن نيتي في المساعدة."

نظر لي درويش بعينه الواسعة التي تشبه حيوان البومة وقال:

- "كيف؟!"

أخرجت هاتفي وأطلعته على صورة اللقاح الذي يدمر السرطان.

- "كيف جلبتي كل هذه الكمية؟ أنا أسجل في القرعة كل مرة ولم يقع على اسم زوجتي حتى أصابني اليأس في معالجتها."

- "حصلت على حصتين من هذا اللقاح، حصة لأمي وحصة قمت بتزوير أوراقها في التسجيل باسم والدي، ولحسن حظي وقع الاختيار عليهم."

- "نصف يحصل على حصتين ونصف آخر لما يحصل على شيء مثلي. أجلس هنا كل يوم أنظر إلى زوجتي التي يأكلها السرطان، ويتساقط شعرها ويجف جسدها حتى بدأت الجيران ينظرون إليها نظرات التعجب. رأيتها تحتضر أمام عيني بسبب نظرات الجبناء إليها، طلبت مني (مريم) زوجتي أن تعيش في القبو ولا يراها أحد، فعلت كل ما طلبته مني وأنا أقف ولا يمكنني تقديم المساعدة إليها."

قالها درويش وهو يقترب من زوجته الساكنة في الزاوية، أمسك يديها المرتجفتين جيدًا، ثم نظر إلى عينها التي تتساقط منها الدموع وأكمل حديثه قائلاً:

- "يمكنني فعل أي شيء كي أسترد حياة (مريم) التي يندمج دماؤها في جسدي."

- "أنا حصلت على حصتين، يمكننا الآن عقد صفقة!"

- "وما هي نوع الصفقة أيتها المحققة؟!"

قالها عاصم بصوت مرتعش وهو يقاوم آثار جرح الرصاصة، نظرت له بلهفة فورية وسقطت بجانبه وأنا أمسك يديه:

- "عاصم، هل أنت بخير؟"

يحترق القبو الآن بسبب شدة الحب الناتجة داخله، منذ لحظات كاد أن نقتل

بعضنا البعض، والآن كل منا يطمئن على ما ينجذب إليه.

عقدت صفقة بيني وبين الأستاذ درويش وهي أن أجلب له مجموعة اللقاح لشفاء زوجته، وهو يجلب لي الكمية التي أطلبها من السجائر الممنوعة.

غادرنا أنا وعاصم المنزل في الصباح، تحمل على نفسه بسبب الإصابة وصعد على الدراجة ثم رحلنا إلى منزلي وطلب مني أن يرسل هو تلك اللقاح إلى درويش خوفًا عليّ من أي وقوع خطأ.

الساعة تدق السابعة ليلًا، ولم يصل عاصم لي حتى الآن، وآخر رسالة أرسلها لي:

"قمت بتنفيذ الصفقة، وأنا الآن في طريقي نحوك بالدراجة أحمل صندوقًا مليئًا بالسجائر الممنوعة، ابقي في انتظاري."

أقف أمام غرفتي، أفرك ذهابًا وإيابًا، أقبض على أصابعي متوترة بشدة، أنتظر وصول عاصم، كل دقيقة أنظر من على حافة السور على أمل أن أراه قادمًا، انتظرت ما يقارب ساعتين من بعد وصول الرسالة حتى جاء عاصم وهو يصعد ويلتقط أنفاسه بسرعة.

- "كاد أن يلحقوا بي!"

- "من هم!"

- "شرطة السجائر الممنوعة."

- "هل هم خلفك؟!"

- "كاد أن يلحقوا بي."

- "هل كشفوا أمر السجائر؟"

- "وأنا قادم، أوقفني ضابط شرطة في الطريق وطلب مني فتح الصندوق. ارتبكت قليلًا ثم حاولت التجاهل لكنه أصر على فتحه، قمت بفتحه ببطء حتى وصل الشخص الذي أنقذني من أيديهم."

- "من هو؟"

- "سيارة نقل ثقيلة تحمل كميات كبيرة من السجائر، كشفوا أمرها وحاول السائق الهروب منهم لكن تم القبض عليه، تركني الضابط وانشغل بأمر السيارة،

رحلت دون أن يلاحظ مغادرتي."

التقطت أنفاسي مرة أخرى، كنت أسمع عاصم وأنا يأكلني التوتر والخوف، مدة الحكم على حاملي السجائر الممنوعة تتراوح بين الخمس والسبع أعوام، وأنا لم أسامح نفسي إذا تم معاقبة عاصم بسببي.

هل تُدرك معنى الخوف؟!

فهو ليس رؤية الجن ليلًا وأنت ذاهب إلى المطبخ لتروي حنجرتك الجافة، ولا أيضًا رؤية خيال خلف باب غرفتك المظلمة، ولا ذلك الصوت الصادر من أسفل فراشك الذي يشبه خشخشة احتكاك أظافر القطط بالحائط.

فالخوف نابع من داخلك، يسكن قاع القدم، ويتصاعد تدريجيًا حتى يصل إلى قمة الرأس. ولو أدرك المرء أنه في المستقبل سوف يموت دون الجاهزية لأجوبة الأسئلة الثلاث، حتمًا سيقلق، وتسمع أصوات ريقه المنزلق، فهو يؤكد وصول الخوف.

لكن، تعلم عزيزي القارئ ما الذي يُخيفني؟! أنا أخاف الوحدة.

أخاف أن أرى نفسي ضائعة بين أربع حيطان، أخاف أن أرى نفسي تائهة ولم أجد شخصًا أحكي له ما يقلقني من هذا العالم الغامض، أخاف من نظرة المرء لي عند فعل شيء عادي، أخاف الاختيارات الخاطئة التي ستغير حياتي إلى الأسوأ، وأخاف أيضًا الاختيارات الصحيحة، حتى لو ستغير حياتي إلى الأفضل، فهي معادلة صعبة.

لأن الشيء المشترك في كل الحالات هو الخوف، وتعريفي للخوف هو: المجهول الذي يركض خلفك، وسوف ينقض عليك يومًا ما، حتى وإن اختبأت في قبو.

استمريت في سباق الزمن للوصول إلى حل اللغز الذي تخفيه جثة خزانة الثياب، فأنا مؤمنة بأن التنقيب عنها سيوصلنا إلى فاعل الجريمة، لكنني أخاف أن يكون ذلك الشخص القاتل ميتًا!!

حينها ستنهدم كل الخطط التي فعلتها أو سأفعلها في المستقبل.

فاليوم، في حوزتي السجائر الممنوعة بعد أن أوصلها لي عاصم، وضعتها في غرفة الجثة، صندوق كامل مملوء بالسجائر. يمكنني الآن التحدث مع (ربيع)

حارس العمارة لكي يعطيني ما يُخفيه عن (حامد)، فهو ضمن قائمة المشتبه بهم، بل يجلس في القائمة بمفرده، إذ لم أقم بتسجيل اسم شخص آخر فيها.

أخذت دُستة من السجائر واتجهت إلى ربيع. كان يجلس على باب العمارة بجلبابه الرمادية المهلهلة، يُشفر أكمامه وينهش في الطعام الذي أمامه. كان يقطع شرائح الباذنجان المخلل ويلتقطها بأسنانه المفترسة المسنونة بمبرد، منظر تقشعر له الأبدان!

لكن يجب الحديث معه من أجل إفشاء سر حامد. اقتربت إليه حتى وضعت السجائر بجانبه.

انتفض ربيع من منظر السجائر، وقام من مكانه سريعًا ليدخل غرفته ويُخفيها، ثم نظر إليّ وقال:

- "هذه جريمة يا أستاذة نور، لا تفعليها مرة ثانية."

- "هيا، تحدث عمّا تُخفي!"

- "ما الذي أُخفيه؟!"

قالها وهو يمسح يديه من الطعام في فوطة صفراء متسخة.

- "ذلك الذي تُخفيه عن حامد صاحب العمارة."

- "أنا لم أُخفِ شيئًا عنه."

- "كنت أعلم يا ربيع أنك ستفعل ذلك، لكن لا تخف، أعرف الحل الذي سيجعلك تتكلم."

وأثناء إطلاق كلماتي، أخرجت هاتفي للاتصال بالشرطة لإبلاغهم عن ربيع الذي يُخفي سجائر ممنوعة في غرفته.

- "ماذا تفعلين؟!"

- "أبلّغ الشرطة عن السجائر التي تُخفيها في غرفتك."

- "آسف يا أستاذة نور، كنت أمزح معك، تفضلي ارتاحي ودعيني أحكي لك."

أغلقت هاتفي، فأنا لم أتصل بالشرطة من الأساس. جلست أمام ربيع الذي كان

يجلس على الكنبة الصغيرة، وأخرج سيجارة من العلبة التي جلبتها له، وأشعل واحدة منها وسحب بعض الأنفاس قائلًا:

- "صاحب السجائر هذه راجل صاحب مزاج، عارف قيمة الذي يدخل صدره."

- "ربيع!"

- "آسف، هدخل في الموضوع."

سحب ربيع عدة أنفاس من عقب السيجارة، ثم أخرج دخانًا أبيض يملأ الغرفة وقال:

- "منذ عشرة أعوام، كان الذي يُدير تلك العمارة الأستاذة (خيرية عبد الحميد)، شقيقة الحاج حامد."

نظرت إليه بشهقة مفتعلة قائلة:

- "هذه غير الست نوال!"

- "نعم، غيرها. كان الحاج يسهر كل يوم في الخمارة الصغيرة اللي في أول شارعنا، ويعود إلى المنزل سكران، ويحدث شجار يومي بينه وبين زوجته بسبب الخمرة، وبسبب أنه عاطل لا شغلة ولا مشغلة، مع أنه يمتلك محلات مصوغات تابعة لوالده عبد الحميد منتشرة في أنحاء القاهرة."

- "لكن من كان يُدير تلك المحلات؟"

- "أولاد الست خيرية، وكل شهر يتم توزيع الأرباح على الثلاثة: الحاج حامد، والست خيرية، والست نوال."

- "نعم، وما المثير في هذه القصة القصيرة؟!"

قام ربيع من موضعه لتحضير كوب شاي، وأثناء التحضير قال:

- "اصبري يا أستاذة نور."

بعد دقائق، انتهى ربيع من تحضير الشاي، ووضع كوبًا أمامي وآخر في يده، ثم أخذ رشفة من الكوب الحار ووضعه على الطاولة، وأخرج سيجارة أخرى من علبة كان يُخفيها أسفل الأريكة، وأشعلها واستنشق بعض الأنفاس، وتابع:

- "في يوم، عاد الحاج حامد من الخمارة مخمورًا إلى أقصى حد، لا يرى أمامه شيئًا. رأيته بتلك الحالة، وساعدته حتى بلغ الدور الثالث أمام باب شقته، لكن قبل أن يدخل سمع صوتًا عاليًا ومشاجرة من الشقة المجاورة التي كانت تخص الست خيرية شقيقته."

- "كانت تصرخ في وجه أولادها بسبب توزيع الأرباح، وأن العدل يقول إنها يجب أن تأخذ أرباحًا أكثر من إخوتها الآخرين، حامد ونوال. سمع الحاج حامد ذلك النقاش، وبدلًا من أن يدخل شقته، اتجه نحو شقيقته خيرية وطرق الباب حتى فتحت. نشب بينهما شجار حاد، وانتهى بأن دفعت الست خيرية الحاج حامد دفعة قوية دون قصد، أدت إلى سقوطه على درجات السلم وانفتحت رأسه بثلاث غرز.

من بعد هذه الحادثة، اشتعلت الكراهية بين الست خيرية والحاج حامد، لكن استمر أولاد الست خيرية على الوصال بينهم وبين الحاج حامد، كانوا يأتون إليه كل يوم على أمل أن ينالوا رضاه، لكن كل ما كان يحمله حامد على لسانه هو الانتقام، ثم التفكير في المصالحة بعدها."

- "انتقم منها الحاج حامد بالقتل، أليس كذلك؟!"

قلت هذه الجملة وأنا أنهض من على الكرسي الذي كسر ضلوعي.

- "لا يمكنني أن أقول انتقام، لماذا تقولين هكذا يا أستاذة نور؟!"

قالها ربيع وهو ينظر إليّ بعينه الضيقة.

- "لأنني لم أرَ الست خيرية منذ وجودي هنا!"

- "أنتِ حديثة في العمارة، لذلك لا يمكنك معرفة الأمر."

- "وما هو الأمر؟"

- "من بعد المشاجرات وحادثة الحاج حامد، صارت الأمور كما هي، يومهم العادي يحدث."

- "يسهر حامد في الخمارة، وتعمل أولاد خيرية في المصوغات، وفي آخر الشهر تُوزَع الأرباح، حتى جاء اليوم الموعود وهو اختفاء الست خيرية!"

- "بالتأكيد الفاعل حامد، الإجابة واضحة."

- "جميعنا طرحنا هذا السؤال على الحاج حامد."

- "وأين كان يُخفيها!"

- "يا أستاذة نور، أنتِ تخلقين أحداثًا لا تمس الواقع بشيء."

- "من الطبيعي أن يكون هو الفاعل يا ربيع، هذه ليست معادلة عويصة."

- "لكنه أنكر معرفته بمكانها، وقال إنه لم يرها منذ أشهر."

- "وأين رحلت الست خيرية؟ وأين أولادها؟ ألم يبحثوا عنها؟!"

- "أبلغوا الشرطة وقتها، لكن لم يتم العثور عليها، ومرت السنين ولم نعرف أين اختفت، لكنني على يقين أن الحاج حامد هو السبب."

- "ولماذا أنتَ متيقن إلى هذا الحد؟!"

- "في يوم كنت أدفن صديقًا مقربًا لي، ورأيت الحاج حامد يغادر المقابر التي كنت فيها."

- "وعندما سألت صاحب المدافن، قال لي إنه يأتي كل أسبوع ليقرأ الفاتحة على شخص مدفون هنا، لكن هذا الشخص لا يملك رخامة يوضع عليها اسم."

قال ربيع الجملة على مراحل، إذ كان يسعل كثيرًا بسبب السجائر التي يدخنها.

- "من الممكن أن تكون هي الست خيرية، إذن يجب أن نراقبه."

نهض ربيع من موضعه، وسحب آخر أنفاس من السيجارة، ثم وضع عقبها في كوب الشاي وقال:

- "ومن سيفعل هذا؟ وماذا ستقدمين له؟!"

- "أعلم يا ربيع أنك تطمع في المزيد من السجائر الممنوعة."

- "إذًا اتفقنا يا أستاذة نور، تجلبين السجائر وأنا أجلب لكِ معلومات حامد، وأعرفك بما يُخفيه في المقابر."

قالها ربيع وهو يبسط ذراعه أمامي ويفرد كفيه ليصافحني، لكنني تجاهلت المصافحة، ورحلت إلى أمي التي تنتظرني، فهي تشاهد التلفاز وفي انتظاري.

***

بدأت تظهر علامات اللقاح على وجه (فاتن)، فهو أيضًا يتسبب في تساقط الشعر من الرأس، ويجعلها حزينة عندما تنظر في المرآة. أحاول بأقصى جهدي أن أبعد عنها تلك المرآة، وأحكي لها قصصًا وهمية عن أصحاب مرض السرطان الذين عانوا من المرض نفسه، وتم شفاؤهم بعد تلقي اللقاح، فهو سريع الاستجابة، وسريع القتل أيضًا.

من المحزن أن ذلك اللقاح من الممكن أن يُنقذك من الموت، ومن الممكن أيضًا أن يجلبه لك. لكن الغريب أن اللقاح يعالج السرطان، ويعالج السمنة المفرطة في الجسم، ومع ذلك كانت أمي كما هي، جسدها ثابت لا يزيد ولا ينقص.

العلاج لا يعرف طريقه إليها. من الطبيعي أن يزيد وزنها بسبب عدم تحركها كثيرًا عن الغرفة وعن السرير إطلاقًا، لكن لا يمكنني البوح لها بذلك المرض. أنا لا أحب رؤيتها منكسرة، فكلما تذكرت تبكي بشدة، لأنها تتذكر معه فراق أبي.

فهو لا يسأل عنا حتى الآن، لا أعرف لماذا تركنا هكذا؟! لا يريد أن يعرف عن ابنته شيئًا: كيف تعيش؟ كيف تأكل؟ كيف تتخطى حياتها بدونه؟! مهما فعلت الأم، تظل البنت فاقدة للعمود الأساسي لها، السند الذي يتحدث عنه الجميع.

بسبب فقداني لأبي، اتجهت أسراري إلى عاصم دون تحكم مني. لاحظت نفسي أحكي له كل شيء عن حياتي، فهو صديقي منذ زمن. أعتبره صندوقي الأسود الذي أخفي فيه رسائلي، ولا أحب أن يطلع عليها أحد، ولا أحب أيضًا أن يُفصح عمّا صرّحت به.

- "هل ستظلين واقفة هكذا كثيرًا؟"

قالت أمي تلك الجملة، فقطعت حبل أفكاري الخبيثة التي تذكرني بالماضي الذي أحيانًا أحب تذكره.

- "لا، قادمة لنأكل."

أغلقت الباب خلفي واقتربت منها. جلست أسفل قدميها، وضعت رأسي على ساقيها، وبدأت أمي تمشط بيديها شعري، ففغلت عيناي سريعًا. أحب تلك الطريقة، فهي تعطيني بعض الأمان، لكن الأمان لا يحب مجاورتي إلا لثوانٍ معدودة.

@ART_OF_BOOK

صدر صوت قادم من الباب، طرقات قوية لا توصف، كأن شخصًا يحاول اقتحام غرفتنا. نهضت من مكاني سريعًا نحو الباب لمعرفة من الطارق، فمن المؤكد أن يديه تشبه المطرقة.

- "مَن؟"

- "شرطة."

ما سبب وجودهم هنا أمام غرفتي؟! هل تم كشف أمري؟! هل أبلغ أحد عن تلك الجثة؟

يا الله الجثة! فهي في الغرفة التي خلفهم تمامًا، تبعد سنتيمترات قليلة فقط. لم أتذكر هل أغلقت الباب آخر مرة أم تركته مواربًا. ترددت في فتح الباب لهم، لكنهم لم ينتظروا، وبدأ الطرق مرة أخرى ولم يتوقف حتى فتحته.

رأيت رجلًا تحيط به مجموعة من الرجال، ينظر إليّ ويقول بلهجة حادة:

- "أين عاصم؟!"

- "أيّ عاصم يا حضرة الضابط؟ لا أعرف شخصًا بهذا الاسم."

- "عاصم صاحب تلك الغرفة."

قالها ضابط الشرطة وهو يشير بأصبعه نحو غرفة الجثة، مزاحًا بعض الرجال أصحاب الشوارب السميكة الواقفين حوله، ثم التفت نحوي مرة أخرى.

- "تلك الغرفة مغلقة منذ زمن بعيد."

خرجت كلماتي بصعوبة، وظهر الارتباك والخوف على وجهي، لكنني عدت إلى صوابي عندما رأيت باب الغرفة مغلقًا.

***

(2)

(الاختفاء)

تدهور الوقت، وأصبح للملل معنى زاهد، والهواء الخارج من جسدي يترك ألمًا محفورًا ذا علامات مبينة. لا أعرف لماذا اختفى عاصم من حياتي فجأة، هل أمسكته الشرطة بعد نزولهم من أمامي؟ لكني أشك في هذا، لأنني بحثت عنه في جميع الدفاتر المسجلة بالقضايا ولم أرَ اسمه. هل انشقت الأرض وابتلعته؟ أم لعب القدر لعبته وانتقل إلى رحمة الله دون علم أحد؟

كنت أتمنى أن أفتح عينيّ لأتفاجأ بوجوده جواري يبكي على ما جرى منه، لكن كل هذه الخيالات لم تحدث، وأصبح انكشاف سر الجثة هدفًا ضائعًا ساذجًا خارجًا عن سيطرتي.

عاصم كان يشبه العكاز الذي أستند عليه، وكان يشبه الطاقة التي تُضيء مصباحًا في غرفة مليئة بالعتمة. لا أعلم أين رحل، لكن يبقى سؤالي: لماذا اختفى هكذا؟!

لم يصدر مني أي مكروه، هل من الممكن أنه علم بأن الجثة كانت موضوعة في خزانة ثيابي وليست عند صديقتي؟ لكن كان من الممكن أن يصارحني وأنا سأجيب.

كل هذه الأسئلة والأجوبة تدور في عقلي. انتظرت أسبوعًا كاملًا على أمل أن أرى هاتفي مضيئًا باسم المتصل عاصم، أو أقرأ رسالة نصية منه.

كانت تأتيني كل يوم رسالة، لكن ليس من المرسل الذي أنتظره. كان المرسل مجهولًا غير معروف بالمرة، لكن الغريب في الأمر أن مضمون الرسالة كان أرقامًا غير مفهومة عبارة عن (520). لم أفهم الرقم ولم أعثر على من أرسلها، ولم يعنِني إن لم يُظهر نفسه. أصبحت حياتي كئيبة مليئة بالملل، وفقدت شغف البحث وراء الجثة، لكن جاءني اتصال جديد، وهو من قام بإحياء شغفي مرة ثانية للعودة إلى البحث دون عاصم.

***

ها أنا الآن أجلس في مقهى الباشا، أنتظر مجيء نادي الذي يريد مقابلتي.

أثناء انتظاره رأيت وجوهًا كثيرة تشبه عاصم في لون بشرته ونظارته السوداء، حتى قوام جسده المثالي. كنت معجبة به، وشعره القصير وضحكته صاحبة الغمزات، كان يشبه الدكتور و..

قاطعني نادي، فقد وصل في أهم لحظة من خيالي لعاصم.

- "متأسف لو طلبت مقابلتك فجأة."

قالها نادي وهو يسحب مقعدًا للجلوس أمامي.

- "لا مشكلة، هل يوجد جديد في اختفاء عاصم؟"

- "للأسف لا، لكنني اليوم جئت بخصوص الجثة، وليس عاصم."

- "ما بها الجثة؟!"

- "حضرتك يا أستاذة نور، صديقي الذي جلبته لكِ منذ فترة غادر أمريكا مرة ثانية، والآن أصبحنا بدونه ولا شيء لدينا، ولا يمكننا تحليل الجثة ولا معرفة هويتها."

- "أعلم ذلك، وهل لديك حل آخر؟"

- "لهذا جلبتكِ إلى هنا، من الممكن تشريحها عندكِ في الغرفة."

استغرقت ثواني لأستعيد كلماتي، لكنها لم تكن ثواني فقط، سرحت في شخص يشبه عاصم في بعض التفاصيل، لكنه بدون نظارته السوداء الشهيرة حتى..

- "أستاذة نور، أنتِ معي؟"

- "نعم."

- "ما ردك بخصوص الجثة؟"

- "ما الجديد في قولك؟ هناك نفس العقبة. أين المعدات التي طلبها صديقك آخر مرة؟ يحتاج إلى تلك المعدات لتشريح الجثة، وقال إنه سيقوم بإحضارها من مشرحة لصديق مقرب له."

- "عثرت على ذلك الصديق، وسوف يُدخلنا المشرحة لنأخذ المعدات ونرحل، لكن يعوقنا شيء."

- "ما هو؟!"

- "صديقي ورجاله الذين يحرسون المشرحة يطلبون الكثير من السجائر الممنوعة لإدخالنا."

نفخت في الهواء ثم صمت لثوانٍ، وتابعت:

- "الجميع يحفي خلفها، لا تحمل همًا. إذا كان الأمر متوقفًا على السجائر فسأجلبها، ونحن ذاهبون إلى المشرحة."

- "من الممكن أن نذهب غدًا، في الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل."

- "أعلمني بمكان المشرحة، لأنني لا أعرف طريقها."

- "مشرحة زينهم الشهيرة، تعرفينها."

نظرت إلى نادي وأنا أومئ برأسي قائلة:

- "نعم، أعرفها."

- "سأكون في انتظارك."

- "اتفقنا."

كان يومًا مليئًا بالتعب. انتهيت من مقابلة نادي المتوتر دائمًا، وعدت إلى مخبئي الذي أسكن فيه. كنت أتمنى لو ألقي نظرة على الجثة الهامدة في غرفتي، لكن الجسد يتطلب الراحة، والعين تطلب بعض النظرات الخاطفة إلى أمي.

يتسع صدرها لجسدي المملوء بالندبات الحياتية، فهو يزيح كفًا هائلًا من التساؤلات اليومية، لكن ينقصني أيضًا والدي (صابر). مهما أظهرت الأنثى أنها تتحمل وشجاعة وقادرة على مواجهة العالم بأكمله، فهي ستظل أنثى تريد سماع بعض الكلمات التي ترسم على وجهها الفرحة، وتريد ذلك الرجل الذي يحمل عنها بعض الأعباء، فهي هشة وليست بنفس صلابة الرجل.

لا أعلم لماذا تهرب من حياتي الرجال؟! هل أنا مثل أمي التي هرب منها أبي؟!

كان يجب أن يكون بجانبي، لكنه أعلم بالطريق الذي يسلكه. وعلى الرغم من أنه هرب ولم يسأل عن ابنته، فإنني أنا أبحث عنه، ولم أنتهِ من بحثي حتى أعثر عليه.

أحضرت العشاء لنأكل أنا وأمي مثل كل يوم، وحان الوقت لكي أفجر قنبلتي اليدوية التي تكرهها فاتن.

- "لا يوجد جديد عن أبي."

نظرت إليّ بأطراف عينيها وكأنها مشغولة بمتابعة التلفاز ولم تجب.

قررت أن ألقي عليها القنبلة مرة ثانية على أمل أن تنتبه لي.

- "لم تسمعي سؤالي أم لم تحبي الإجابة؟!"

- "تشبهين أباكِ في نفس الخباثة، كان يلعب بالكلام مثلك."

- "هذا جيد، على الأقل أذكركِ به."

- "من قال إنني أريد سماع سيرته!"

قالت جملتها وهي تلتفت إليّ بوجه شديد الاحمرار.

- "كما أنتِ يا فاتن تتظاهرين بالقوة، لكن أعلم أنكِ أكثر احتياجًا لأبي."

- "كفاكِ كلامًا عن ذلك الهارب، أين تختفين كل الأيام السابقة؟!"

تجمدت أفكاري قليلًا، ولم تحضر أي إجابة، وظهر عليّ التوتر. حاولت مغادرة الحديث بحمل أطباق بقايا الطعام، لكن من الواضح أن فاتن تنتظر الإجابة حتى الآن.

بعد صمت دام لدقائق طويلة، قامت فاتن بتكرار نفس السؤال، والشيء المفقود الآن إجابتي!

لكن الذي أنقذني من المواجهة مع أمي فاتن هو رنين الهاتف. لم يكن رنينًا، بل كانت تلك الرسالة المزعجة من الشخص المجهول، وبنفس المضمون (520).

انتهى عصر الرسائل أيها الغبي، قف عن فعلك وواجهني كي يُفرغ غليلي وفضولي، لا أتحمل صبر غليان فنجان قهوة، فهل عليّ أن أصبر حتى تكشف عن وجهك أيها البغل؟!

يمكنني أن أنظر إلى نصف الكوب الممتلئ؛ تلك الرسالة كانت سببًا في خروجي من الغرفة كي تنسى فاتن سؤالها. لم أعثر على إجابة لها، ولا يمكنني مصارحتها

بما أفعله.

انتظرت كثيرًا حتى غلبها النوم، وعدت مرة ثانية إلى فراشي كي أقابل جحيم المعارك.

هنا، كل ليلة، تُقام حرب عالمية ثالثة، أنتظر أن تنتهي وتهدأ الساحة حتى أنام.

منذ زمن بعيد لم أنم طويلًا مثلما فعلت الآن، استيقظت على ميعاد حقنة أمي التي يجب أن تتناولها الآن، الساعة تدق الرابعة عصرًا. قفزت من مكاني متجهة ناحية الثلاجة، سحبت منها اللقاح والحقنة، ثم مررتها في جسدها قبل فوات الميعاد، أهم شيء في العلاج هو التوقيت، يجب ألا يتغير.

بعدما انتهيت من إعطاء الحقنة، ظهر عليّ وجع الرأس مرة أخرى، وجع مؤلم لأبعد الحدود، فهو يشبه الصداع لكنه أقوى بكثير. عندما بدأ في الظهور كنت أخدع نفسي بأنه صداع بسيط وسوف ينصرف بمفرده، لكنه ازداد سوءًا وأصبح عضوًا جديدًا في جسدي، أشعر به عند الاستيقاظ وحتى آخر اليوم. وعندما تواصلت مع إحدى الطبيبات قالت لي إنه يجب عمل أشعة مقطعية على المخ لكي تطمئن أكثر ونعرف هل هذا شيء بسيط يذهب من تلقاء نفسه ببعض الأدوية أم أنه ورم بالمخ!

دائمًا لا أصدق هؤلاء الأطباء الذين يضخمون المواضيع الصغيرة، لماذا يصيبني ورم بالمخ؟ فأنا شابة صاحبة شعر أسود وعيون سوداء ووجه إلى حدٍّ ما جميل، لماذا يصيبني مكروه؟ هل قامت أمي بإلقاء دعوة في السر حين كانت أبواب السماء مفتوحة؟ أم سوف أموت قريبًا وهذه هي البدايات؟ يجب عليّ ألا أفكر كثيرًا، لاحقًا سوف أعمل ما طلبه الأطباء، لكن الآن يجب أن أفيق من دوشة اليوم وأستعد لاقتحامي القادم في مشرحة زينهم، ويجب أن أجلب تلك السجائر الممنوعة التي يطلبها حراس أمن المشرحة.

الساعة الآن تدق الثانية عشرة بعد منتصف الليل، شارع خالٍ من البشر، وكذلك تلك المشرحة خالية من الداخل ومن الخارج، تشبه المباني الكئيبة الغامضة، والظلام يسكنها. هل من الممكن أن يكون بداخلها جثث؟! أشك في ذلك.

أجلس على مقهى بلدي صغير يجلس عليه بعض الرجال الذين شاب شعرهم منذ زمن، من الممكن أيضًا أنهم لا يدركون ما نوعي: ذكر، أم أنثى أم حيوان

مفترس تسلل من الفضاء ليشرب معهم كوبًا من الشاي. لا أعرف لماذا ينظرون إليّ بكل هذه الدقة، يا للغباء، حتى الآن لم يعثروا على إجابة. إذا علموا ماذا أخبئ داخل حقيبتي سيتسارعون للوصول إليّ ليحصلوا على عقب سيجارة، فتنتقل أرواحهم إلى العالم الآخر.

بعد عشر دقائق من جلوسي على مقعد خشبي مليء ببعض المسامير، جاء رجل أعور قصير القامة، صاحب بشرة مجعدة، ينظر في جميع الاتجاهات عدا المقعد الذي أجلس عليه، ويقول:

- "لم تشربي شيئًا حتى الآن؟"

من الواضح أنه لا يدرك متى جئتُ ولا يدرك موضع مقعدي من الأساس.

- "أي شيء بدون سكر."

رحل سريعًا وجاء سريعًا، لم أتخيل أن هذا المقهى يحمل كمًا هائلًا من عدم الفهم. جاءني الرجل بكوب من الماء، فهذا هو الشيء الذي طلبته منه، لم يتحمل استيعابه ما قلتُ له، وضعه بجانبي وقال:

- "هذا ما طلبتِ، تحبين أن أحضر لكِ ماءً مع مشروبك؟!"

قالها وهو يوليني ظهره، لم يدرك أنه جاء بالماء ونسي مشروبي، ولم ينتظر إجابتي، وانصرف دون أن ينطق بكلمة أخرى.

قبل أن تلمس شفتي ذلك الكوب المتسخ، وصل (نادي) أمام المشرحة، يقف ويلتفت حوله، من المؤكد أنه يبحث عني. وضعتُ الكوب جانبًا ورحلتُ دون إلقاء السلام على هؤلاء الموتى، حتى وصلتُ أمامه وألقيتُ عليه السلام.

- "هل تنتظر أحدًا؟"

التفت إليّ نادي بشهقة وقال:

- "لماذا تأخرتِ هكذا يا نور؟"

- "أنا أجلس هنا قبل وصولك أن.."

قاطع كلامي وهو يلتفت حوله كثيرًا وقال:

- "يجب أن ندخل الآن، الوقت لم يسعفنا."

- "لماذا؟ لقد جئنا في موعدنا؟!"

- "حارس الأمن الذي اتفقت معه على دخولنا سيرحل بعد ساعة، وسيأتي حارس آخر ومناوبة جديدة، يجب أن ندخل ونخرج في أقل من ساعة."

- "هذا مستحيل يا دكتور نادي."

قلت عبارتي وأنا خائفة، ظهر على وجهي القلق، لقد قمت بالاقتحام من قبل، لكنني أخاف من هذه التجربة، فهي مليئة بالجثث.

- "يجب علينا الدخول، لا خيار لنا، إذا غادرنا لن تنحل عقدتك، وستبقى الجثة كما هي دون هوية."

نعم، هو محق، يجب أن تنحل العقدة قبل انتشار سر الجثة.

- "إذًا سوف ندخل."

رحلنا سويًا بمحاذاة سور المشرحة حتى وصلنا أمام البوابة الخلفية التي كان يحرسها (محروس)، شاب يافع نحيف، يأكل المرض جسده، لا أعرف لماذا ينتظر حتى الآن ولم يذهب إلى الأطباء، يجب أن أنصح نفسي بهذه النصيحة أولًا، أعلم ذلك. سبب تحوله الزائد كان ذلك القميص المتهالك عليه، يكفي شخصين مثله في الجسد، صاحب بشرة سمراء وعيون واسعة بارزة من مكانها، شعره مجعد يشبه أولئك الذين يثرثرون مع أنفسهم بسبب غلاء الأسعار.

قبل أن نقترب من البوابة، طلب نادي السجائر الممنوعة، أخرجتها من حقيبة الظهر وناولته واحدة تلو الأخرى، وعند الوصول إلى (محروس) قام بإعطائه السجائر.

- "أمامك ساعة فقط يا دكتور نادي، وكما فهمتك لا توجد بالداخل إلا كاميرا واحدة في الممر، انتظر حتى تبتعد عنك العدسة وقم بالمرور."

- "حسنًا، أنا أحفظ المشرحة أكثر من اسمي."

دلف نادي إلى الداخل وأنا أتابعه، سلكنا الدرجات حتى وصلنا إلى الممر الذي توجد به كاميرا المراقبة التي تحدث عنها محروس. تتميز جدران الممر بأوساخ وحشرات مهولة، من الواضح أنه لا يوجد عمال نظافة هنا. وقفنا نراقب الممر المليء بالتفاصيل المقززة حتى تغير اتجاه عدسة الكاميرا. بعد ثوانٍ قليلة

اتجهت العدسة إلى الجهة الأخرى، وأصبح طريقنا في المنطقة العمياء.

تابعنا السير بخطوات بطيئة حتى وصلنا أمام باب حديدي مغلق بالكامل، توجد فتحة زجاجية في أعلاه، ومن الواضح أنه الباب المؤدي إلى الثلاجات التي تحتفظ بالموتى، وتلك الغرفة أيضًا تحتوي على بعض المعدات التي نحتاجها. دفع نادي الباب لندخل ونبقى في الظلام، غرفة لا تعرف النور، عتمة في كل مكان، ومن الصعب رؤية يديك.

طلب مني نادي أن أقوم بتشغيل مصباح الهاتف الخاص بي لتحسين عملية البحث عن المعدات، لكن قبل تشغيل المصباح بدأتُ أسمع بعض الأصوات التي تشبه تقليب الأوراق من آخر الغرفة على الرغم من أن نادي بجواري!

- "ما هذا الصوت؟!"

قال نادي عبارته، لكن لا يمكنني رؤية تعبير وجهه، أسمع صوت نبضات قلبه فقط، فهي تدق بسرعة فائقة.

- "لستُ أنتَ الفاعل؟!"

- "أسرعي في تشغيل المصباح، يجب أن نعرف ماذا يحدث؟!"

الرعب يتغلغل في جسدنا بسرعة البرق، يمكنك أن تتخيل كل شيء ينهي نسلنا المستقبلي الآن، فنحن بجانب ثلاجات الموتى، فمن سيلعب معنا هذه اللعبة السخيفة غيرهم؟! بعد أن عثرتُ أخيرًا على هاتفي، قمتُ بتشغيل المصباح ليضرب الضوء في ظهر (نادي)، ثم وجهته يسارًا قليلًا في الاتجاه الذي صدر منه الصوت، لنرى مكتبًا صغيرًا يوضع عليه بعض الأوراق ومشرطًا ملطخًا بالدماء وبعض القفازات البلاستيكية. قمتُ برفع الضوء إلى الأعلى قليلًا لنرى بابًا من أحد الأبواب الخاصة بالجثث مفتوحًا!!

- "رأيتَ ذلك يا نادي؟!"

- "نعم، يجب أن نبحث عما جئنا إليه ونرحل سريعًا."

قال عبارته بثقل في اللسان، كان العرق ينزلق من على جبهته.

- "كيف نبحث ونعلم بوجود جثث بجوارنا سو.."

لم أكمل عبارتي بسبب ذلك الصوت الصادر من الخزانة التي بداخلها المعدات

التي نحتاجها!

- "يجب أن تتقدم لكي نرى ما يوجد في الخزانة؟"

نظر نادي إليّ بوجه شاحب، اقترب شعره من الفرار من جذور رأسه بسبب الأصوات القادمة من الخزانة، فهي تشبه خرابيش الفئران في زوايا الغرفة، لكننا لم نواجه فأرًا يبحث عن قطعة جبن، هذه حركات الجثث التي أطلقت أرواحها خلفنا.

تقدم نادي بعض الخطوات الصغيرة، ورغم انعدام الرؤية، لكني أعلم أنه قلق بشأن صوت الخزانة. قبل أن نقترب منها فُتحت الدرفة دون أن نلمسها، فُتحت بطريقة سينمائية بحتة، صوت صريرٍ مشهور، صوت يثبت لنا أن الرعب قادم. نعلم أنه قادم، لكن في النهاية سوف نصرخ من شدة الفزع المفاجئ.

- "قبل أي شيء، إذا ظهر لنا الجن والعفاريت الآن يجب أن نلتزم الصمت حتى نخرج سالمين."

قالها نادي، وأنا أضع يدي على فمي، لأني أعلم مهما قال لي سوف أصرخ إذا شاهدتُ صرصارًا، وسوف أصرخ أكثر إذا كان صرصارًا يطير في الهواء.

كانت تعلم جثث المشرحة بمجيئنا، وكانت تعلم أيضًا لماذا نحن هنا الآن، لذلك خرج من الخزانة مقص كبير يُستخدم في تكسير عظام الصدر لدى الأموات! خرج بمفرده دون أن يقوم أحد بإخراجه، يمشي في الهواء حتى وصل أمامنا وسقط، ثم يليه منشار كهربائي صغير يُستخدم أيضًا في فتح جماجم الجثث لتفصح الرأس من الداخل. وقبل حدوث شيء آخر قال نادي:

- "كيف يحدث ذلك؟!"

- "يبدو أنهم يعلمون ماذا نحتاج!"

- "تبقى جهاز الميزان الحساس وجهاز.."

قبل أن يُكمل (نادي) عبارته صدر صوت من خلفنا، كانت الفاعلة قطة شديدة السواد، لا تملك شعرة واحدة بيضاء، يبدو عليها - كما يقولون- جن! كانت تقف بجانب ميزان حساس كما طلب نادي. تحركت خطوات قليلة حتى وصلت إلى جهاز آخر يشبه التلسكوب لكنه ليس كذلك. ظهر على نادي ابتسامة عريضة

وطلب مني فتح حقيبة الظهر، قام بفصل جميع الأسلاك الموصولة بالكهرباء الخاصة بالجهاز، ثم وضعه في الحقيبة، وقبل أن يغلقها مرة ثانية سمعنا صوت باب الغرفة يُفتح وشخص يقول:

- "من أنتم؟!"

تقف على عتبة الغرفة امرأة بالغة من العمر ستين عامًا، تتميز بشعرها الأبيض ووجهها المجعد وعينين بيضاوين، وباقي تفاصيل الجسم غير معلومة لأنها تُخرج رأسها من الكفن!

كل ما حدث منذ دقائق ليس شيئًا بالنسبة لما أراه الآن، فهي جثة قامت من مرقدها لتقطع لنا الخلف.

- "لم يُجب أحد، من أنتم؟!"

قطعت أفكاري وقالت عبارتها السابقة وهي تميل بأذنها اليسرى نحونا، من الواضح أنها لا ترانا، فهي تتابع الأصوات فقط. أشار نادي إليّ وهو يضع إصبعه السبابة على فمه، إشارة تعني الصمت والقيام بما جئنا إليه دون إصدار صوت، حتى بأقدامنا. تخطّينا على أطراف أصابعنا لتجميع باقي المعدات، قمتُ بسحب المقص والمنشار من أسفل الأرض، وقام نادي بسحب الميزان وربطه بذراعه.

تبقّت عِلّة تعوقنا، وهي الخروج من الباب الذي تقف عليه تلك الجثة العمياء، فهي لم تتحرك، حتى جاء صوت من الخارج، كان لحارس المشرحة يدندن، من الواضح أنه ليس محروس! يبدو من نبرة الصوت أنه شخص آخر.

سرقنا الوقت وتخطّينا الساعة، وبدأت مناوبة جديدة. عندما ظهر حارس المشرحة تبخرت الجثة، ولم يتبقَّ لنا إلا أن نختبئ قبل قدوم الحارس ويكشفنا. ركضتُ أنا ونادي مسرعين أسفل منضدة حديدية تُوضع عليها الجثث، على أمل ألا يرانا الحارس. اقتربت أقدامه من الغرفة، تبقّت بضع خطوات!

ها هو الآن يقف متعجبًا مما يراه! في الوهلة الأولى حسبتُ أنه كشفنا، لكنه كان متعجبًا من فتحة باب الغرفة، كان يجب أن تكون مغلقة بإحكام من صديقه في المناوبة السابقة. بعد تجمد دام ثواني، اقترب من الغرفة وحدّق بعينيه في كل الزوايا، ثم أغلق الباب جيدًا. سمعتُ تلك التكة التي تؤكد غلق الباب.

لكن المقلق في هذا الأمر ليس الباب المغلق، المقلق أننا سنعيش مع الجثث يومًا

كاملًا حتى يأتي (محروس) في الصباح.

- "جاهزة لعيش يوم كامل هنا؟!"

- "أعيش مع جثة منذ فترة قصيرة، لكن من الصعب العيش في مشرحة مليئة بالجثث."

- "الجثث هنا غير، يجب علينا احترامهم."

- "أنا لم أتحرك حتى مجيء محروس."

- "أنا كذلك، لستُ مستغنيًا عن عم.."

توقف نادي عن النطق وهو ينظر إليّ بدهشة.

- "لماذا تنظر إلى رأسي هكذا!"

- "هل تخافين من الفئران؟!"

نظرتُ له ولم يتحرك رأسي، قائلة:

- "هل يوجد شيء على رأسي؟"

- "نعم، فأر صغيرا!"

يمكنني الاختباء خلف الجثث، لكن الفأر شيء مقزز ومقرف. قمتُ من أسفل المنضدة بفزعة كادت أن يسمعني حارس المشرحة، ومن المؤكد أنه سمع صوتي. انتبهتُ لصوتي العالي متأخرة، في تلك اللحظة التي صرختُ فيها ركض الفأر من على رأسي وخرج من أسفل عتبة باب الغرفة الذي سمعتُ صوته يُفتح، لكن لا يوجد شخص خلف الباب هل من الطبيعي أن يُفتح من تلقاء نفسه أم أن شخصًا فتحه ثم ركض سريعًا؟

لم يهمّنا هذا الأمر، من المفرح أننا لم نجلس هنا حتى الغد. خرجنا سريعًا متجهين نحو الممر ذي الجدران المتسخة، لكننا لم نتابع عدسة الكاميرا التي تنظر إلينا بتمعّن، فقد التقطت وجوهنا المرتعبة، وتابعت مراقبة طريقها الخالي من البشر، ولم يكن في الممر غيرنا. أصبحنا مكشوفين، فلا داعي للاختباء.

ركضنا في الممر حتى وصلنا إلى الدرجات، عدنا كما صعدنا، لكن قبل الخروج من البوابة الخلفية قابلنا (حفناوي)، تعرفتُ على اسمه من اليافطة الصغيرة

@ART_OF_BOOK

المعلقة على صدره، شاب يشبه محروس في كل شيء إلا التفاوض. نظر إلينا بابتسامة تشبه الانتصار، في مخيلته أنه قبض علينا وسوف يضع الأساور في أيدينا ويرحل بنا في أقرب سيارة شرطة قادمة.

لكن قبل أن ينقض علينا، مدّ نادي يديه نحوي ليعطيني الميزان، وطلب مني الهروب وعدم النظر خلفي. لم أعلم إن فعلتُ ذلك سأكون جبانة أم خائنة أم فقط أحب مصلحتي. لم أفكر كثيرًا، ركضتُ من البوابة ولم أنظر خلفي كما طلب مني نادي.

كل خطوة كانت تذكرني بما سيحصل لنادي، الأمر ليس بالسهولة التي يتصورها، لكني ركضت حتى بلغت شوارع وحارات، وسيارات تضرب ضوئها في وجهي، كنت قريبة على بعد سنتيمترات من الاصطدام بهم، لكني ركضت حتى توقفت أمام عمارتي ألتقط أنفاسي. لاحظ ربيع هرولتي وصعود أنفاسي المتسارعة، فتقدم نحوي وقال:

- "من الذي يركض خلفك يا أستاذة نور؟!"

- "ليس أحد يا ربيع، بعض الكلاب كانت تلاحقني!"

- "لم أسمع صوت نباح، هل هم يركضون خلفك في مخيلتك؟"

- "ابتعد عن طريقي يا ربيع."

تجاهلت كلامه وصعدت درجات السلم، وقبل أن أصعد قال ربيع جملته:

- "لم تريدين معرفة شيء عن حامد؟!"

توقفت قليلًا ثم نظرت له قائلة:

- "احتفظ بالسر حتى قدومي إليك."

- "في انتظارك، لكن قبل أن تأتي اجلِبي معكِ كمًا هائلًا من السجائر، هذه المرة المعلومات ثقيلة."

لم أضغط على أناملي مثل هذه المرة؟! يفضح نفسه بنفسه، ويريد الشرطة أن تلحقه قبل أن يبلغني بما يعلمه. من الصعب أن أعتمد على بعض المتشبهين بالعباقرة، وهم آخر ما يعلمونه عن الذكاء أنه ركن من أركان الإسلام.

صعدت حتى وصلت أمام غرفتي التي بداخلها الجثة، لا أعلم عنها شيئًا منذ أسابيع، لكنها كما هي لم تتحرك خطوة. وضعت على الأرض كل ما أحمله من معدات، وأغلقت الغرفة مرة ثانية لأعود إلى أمي، وأتمنى أن تكون نائمة.

مرت ثلاثة أيام على اقتحام مشرحة زينهم ولم أسمع خبر الدكتور نادي، لم أعرف حتى الآن هل أفلت من يد الحارس (حفناوي) أم قبضت عليه الشرطة بتهمة الاقتحام. كل يوم تتعثر أمور الجثة أكثر، أصبحت دوامة غير منتهية تبتلع كل من يحاول مساعدتي. اختفى عاصم، والآن نادي، لم يتبقَّ إلا سواي. هل تركلني لعنة الجثة قريبًا أم تستمر في حفظها عليّ؟

حاولت التواصل مع نادي، لكني لم أصل إلى شيء، حتى اليوم الرابع عندما جاءني محروس ليقوم بتهديدي!!

في المساء سمعت صوت طرق على باب غرفتي، اتجهت إليه لمعرفة من الطارق، كان محروس الذي بحث عني أيامًا. سحبت مقبض الباب لأرى أمامي عيدان كبريت، أقصد أقدام محروس. قفز نظري أولًا إلى أقدامه، ثم ارتفع تدريجيًا حتى وصل إلى رأسه.

- "بحثت عنكِ أيامًا، ودفعت بعض المال لأعثر على منزلك!"

- "من أنتَ؟!"

ظهر على وجهه ابتسامة عريضة تشبه الاستهتار بكلامي، مسح بيديه على شفتيه وقال:

- "لم تشاهدي هذا الوجه من قبل؟ سوف أوفر عليكِ وأقول لكِ."

أخرج من جيبه علبة سجائر ممنوعة، ثم قام بإشعال واحدة منها، وسحب بعض الأنفاس وقال:

- "خادمك محروس، فرد أمن مشرحة زينهم."

أشرت له بعدم الإكمال، وخرجت إليه على أطراف أصابعي لمعرفة سبب وجوده أمام غرفتي.

- "لم أجد إجابة لوجودك أمامي الآن."

- "من الواضح أنكِ ستغدرين بصديقك الذي قبضت عليه الشرطة!"

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

- "نادي! ما حلّ به؟"

خرجت مني بتلقائية وأنا أضع يدي على فمي خائفة مما قاله.

- "بعد أن هربتِ، صاحبي الذي كان ممسكًا بالمناوبة بعدي بلّغ عنه، وقُبض عليه بتهمة السرقة."

- "لكننا لم نسرق شيئًا!"

- "حضرتكِ نسيتِ الكاميرا التي كشفت وجوهكم، فهي مسجلة كل شيء."

أخرج محروس أمام عيني فيديو لي أنا ونادي نتحرك في الممر ونحمل المعدات. حاولت أن أخطف الهاتف، لكنه أفلت من يدي.

- "ليس بهذه السهولة يا آنسة نور، هذا سوف يجلب لي السجائر الممنوعة."

تغيرت ملامح وجهي، وارتفعت جبهتي، وبَرَزَت عيناي.

- "سجائر! لا يمكنني، أنا لا أملك إلا القليل منها."

- "السجائر مقابل ألا يظهر اسمك في المحضر، وكمان لو زودتِ الكمية أقدر أخرج صاحبك."

- "وإذا رفضتُ مطالبك، ماذا ستفعل؟!"

- "عليكِ أن تستعدي للسجن المؤبد، وبصحبتك صديقك نادي. أنا أريد مصلحتك يا آنسة نور، فكري جيدًا، ستجدين الورقة الرابحة في يدك."

قال محروس جملته وهو يغادر من أمامي. صعب عليّ الاختيار بين نادي وربيع الذي يحمل معلومات عن حامد، الذي سنكتشف أنه قاتل عما قريب.

اتجهت نحو الغرفة التي تسكن فيها الجثة، وصندوق السجائر المتبقي لدي ثلث عبوات فقط، لا أكثر ولا أقل. وضعتهم مرة أخرى وغادرت الغرفة، وأنا تائهة عن الإجابة.

لا أحب الانتظار كثيرًا، لم أحبه قطّ، فهو يشبه الشمعة التي تنصهر تدريجيًا، وتنتظر رجوع الإضاءة مرة أخرى على أمل أن تحصل على المتبقي من جسدها.

أجلس على كرسي جلدي أحمل في يدي بعض الأشعة والتحاليل التي طلبها

الدكتور (عز)، أنتظر دوري مثل الباقية، على الرغم من أنه معرفة مسبقة من صديقة مقربة لي، لكني لا أحب المعارف. أنتظر المريض الأخير، ثم تهتف تلك المساعدة السمينة باسمي لأدخل إليه.

عليّ أن أقابل طبيبًا نفسيًا بدلًا من طبيب المخ. يجب عليّ حل مشكلة النميمة على الأشخاص الآخرين، لكني أحب تلك النميمة ولا يمكنني التخلص منها، فهي..

"أستاذة نور، تقدري تتفضلي الآن."

إذا عالجت نفسي من النميمة، سأظل أعيب عليكِ أيتها المساعدة السمينة، فأنا لا أحب من يقطع عليّ حبل أفكاري. قمت من مكاني متجهة نحو المكان الذي أشارت لي إليه. غرفة صغيرة يوجد بها منضدة في المنتصف، يوضع عليها يافطة: دكتور عز لأمراض المخ والأعصاب. أشار لي بالجلوس أمامه، وأخذ مني بعض التحاليل، وبعد ثوانٍ من النظر داخلها قال:

- "من الواضح أنكِ تعانين من شيء يا.. "

ألقى نظرة خاطفة على اسمي المدون في الأوراق التي أمامه، وأكمل عبارته:

- "من الواضح أنكِ تعانين من شيء خبيث في المخ يا آنسة نور، وهذا يجعلنا نتجه لطريق ونظام جديد غير الذي كنا نسير عليه و.."

قاطعت جملته التي يبدو عليها الأهمية بالنسبة له، لكني لا أحب التلاعب بالكلام، إذا كنت مريضة وسوف أموت غدًا، قُلها لي وأنا أتقبل ذلك.. كل هذا الكلام قلته في ذهني، وقلت له:

- "هل هذا الشيء الخبيث سوف أموت بسببه؟!"

- "لا، مرضك لم يوصلكِ للموت، لكنه يوصلكِ للهلاك."

ظهرت عليّ علامات التعجب، لم أفهم شيئًا من كلام هؤلاء الأطباء. أكمل كلامه وهو يتفحص جهاز الكمبيوتر الذي أمامه، وبعد ثوانٍ قليلة وجّه لي شاشة الكمبيوتر وهو يتابع عبارته:

- "هذه هي رأسكِ من الداخل، بها ثقب صغير يؤثر على ذاكرتك، ويمكنك نسيان بعض المواقف التي حصلت من قبل."

- "هل هذا ألزهايمر؟!"

@ART_OF_BOOK

- "يشبهه، لكنه عكسه تمامًا. الذي تعانين منه يشبه ذاكرة السمكة، يمكنك العيش حياتكِ بشكل طبيعي وتتذكري بعض المواقف القديمة، ولكن من الممكن ألا تتذكري موقفًا حدث منذ ساعة، وممكن أيضًا أن تمحي بعضًا من الماضي."

- "في جميع الأحوال، فأنا مريضة."

- "نعم، يمكنك تخطي المرض بالعلاج المستمر مدى الحياة."

كانت العبارة السابقة سهلة على لسان ذلك الطبيب، لكنها صعبة على عقلي. لا أحب العلاج ولا أطيق النظام، لكني تقبلت كلماته وغادرت غرفته، وأنا أعلم أنني لم أنفذ أي شيء مما قاله. أخذت الورقة التي بها العلاج، وقمت برميها بعيدًا، وعدت مرة أخرى إلى عمارتي لكي أقابل عم (ربيع) حارس العقار.

أعلم أنه يحمل كمًا هائلًا من المعلومات التي أحتاجها، أو التي سوف أحتاجها قريبًا. لم أره يجلس أمام العمارة، لكنه دائمًا يحب الجلوس أمام التلفاز ليلًا، ويراقب أصوات الأقدام التي تقترب من عتبة العمارة. صعدت أولى درجات السلم، سمع صوتي فخرج لي مسرعًا:

- "ها يا أستاذة نور، جلبتِ ما أحب؟"

- "لا أعلم قيمة المعلومات التي لديك."

- "منذ أول مرة، وأنا لم أجلب لكِ معلومات دون قيمة."

قال ربيع عبارته وهو يائس، لا يرى في يدي أي نوع من السجائر. عاد مرة أخرى إلى الغرفة وهو يقول:

- "عندما تكون السجائر بحوزتكِ، أنتِ عارفة مطرحي."

- "لم تثق في كلامي يا ربيع، سوف أجلبها، لكن غدًا."

- "من الواضح لقد نفذت سجائركِ، وتريدين معلوماتي مجانًا."

- "هل أنتَ متأكد من تلك الإجابة؟"

أخرجت من جيبي واحدة من السجائر الممنوعة، وقمت بإشعالها، لكن احمر وجهي سريعًا، وتوقف صعود الهواء، وتمكن مني السعال.

- "طالما أنكِ لستِ قادرة على التدخين، فلماذا تفعلينه؟!"

قال عبارته وهو يسحب عقب السيجارة من يدي.

- "خلاص، سأصدقكِ هذه المرة، وأقول لكِ ما عندي، وغدًا صباحًا سأنتظر السجائر."

- "تكلّم، أنا أسمعك."

- "تفضلي بالداخل يا أستاذة نور، حتى لا يسمعنا أحد من سكان العمارة."

ذهبنا إلى الداخل سويًا، وأغلق ربيع التلفاز، ثم جلس على مقعده وقال لي:

- "من آخر مرة أبلغتكِ فيها أن الحاج حامد يدخل المقابر ويقرأ الفاتحة لشخص مجهول، تابعته وتأكدت أنه يفعل ذلك، لكن اكتشفت أن القبر يخص رجلًا اسمه (زينهم عبد الغفور)."

- "ليست شقيقته؟!"

- "لو صبر القاتل على المقتول. بعد ما خرج من المقابر، اتجه إلى بيت في منطقة شعبية، بيت من دور واحد، لكن عندما سألت عنه عرفت أن لا أحد يعيش فيه."

- "تعتقد يا ربيع ماذا سيكون في هذا البيت؟!"

- "يمكن أن يكون متزوجًا؟!"

ارتفع حاجباي بعد سماع جملة ربيع الغريبة، ونظرت له:

- "يا لفصاحة عقلك، كيف يكون متزوجًا ولا يوجد شخص في المنزل؟!"

سحب ربيع بعض الأنفاس من عقب السيجارة، ثم وضع أصابعه في فروة رأسه يزيل الحكة:

- "صحيح! إذًا ما الذي يوجد بالداخل ويريد إخفاءه؟"

- "أكيد مصيبة، ويحاول أن يتكتم عليها. معقول تكون الست خيرية مدفونة هناك؟!"

- "ممكن يا أستاذة نور، كل شيء جائز."

قالها ربيع وهو يرمي عقب السيجارة أرضًا، ويضغط عليه بقدميه.

- "تلك المعلومات ينقصها شيء يا ربيع، يجب أن تتفقد منزله، وتتعرف على الشيء الذي يخبئه، كي تحصل على السجائر."

- "اعتبر تلك الجملة وعدًا أم خدعة؟"

- "لا أعلم، يمكن تكون مكيدة."

قلت جملتي وأنا أمد يدي في جيبي لأخرج هاتفي الذي أسجل عليه حديث ربيع، الذي اعترف فيه أنه يراقب الأستاذ حامد.

نظر لي ربيع بعينه التي كادت أن تنفجر، ولم ينطق حرفًا، حتى غادرت من أمامه قائلة:

- "المحادثة القديمة أيضًا مسجلة."

***

أصبح يومي مليئًا بالمتاعب، وأشخاص يريدون التخلص مني، وأشخاص لا أعرف عنهم شيئًا مثل عاصم ووالدي، فهم!

توقف عقلي عن التفكير عندما لاحظت عدم وجود أمي فاتن في الغرفة، أين ذهبت وكيف رحلت؟! بعد نظر طال ثواني في أنحاء الغرفة، خفَضت نبضات قلبي عندما سمعت صوتها قادمًا من خلف درفة الدولاب.

- "ماذا تفعلين يا فاتن؟!"

قلت جملتي وأنا أقترب منها، أقف خلف الكرسي التي تجلس عليه. رأيت في يديها بعض الصور القديمة لأبي صابر وهي بجواره. وضعت يدي حول صدرها قائلة:

- "يبدو أن قلبك جف من كثرة غيابه عنك يا فاتن."

نظرت لي بعيونها التي تحبس الدموع قائلة:

- "لا أعلم كيف يعلم بوجودك ويهرب بحثًا عن حياة أخرى."

- "من الممكن أن حدث له مكروه أو ما شابه."

- "أو عثر على امرأة أخرى تصرف عليه."

- "كفى يا أمي، سوف يظهر ومعه العذر الذي يُغفر له."

رن هاتفي بعد تلك الجملة، كان المتصل مجهولًا.

- "من؟!"

- "بعد ساعة عند القهوة أمام المشرحة، ومعكِ السجائر، وداعًا."

يبدو أنه محروس يريد إتمام الصفقة الآن. غادرت غرفتي سريعًا متجهة نحو المقهى. سأفعل جريمة بعد قليل، سأتسلل في الشوارع وبحوزتي سجائر ممنوعة.

مقهى يشبه دار المسنين، يجلس عليه كل من تخطى عمره الخمسين عامًا. جميعهم يقومون بلف الحشيش الخالص، ثم ينفخون في الهواء الطلق ويسعلون بشدة حتى يفقدوا الوعي. لا يدري صاحب المقهى أنني أجلس هنا من المرة السابقة حتى الآن، لم يفق من فقدان الوعي الذي يشع بي. من الممكن أنه لم يرني، وهذه عادته.

أجلس أمام مشرحة زينهم، أنتظر مجيء محروس. اتفقت معه على أن أقوم بتسليمه السجائر الممنوعة، وهو يقوم بإخراج نادي ويمسح ذلك المقطع. بعد نصف ساعة من الانتظار بجانب هؤلاء الأموات، وصل محروس بملابس العمل.

- "تأخرتِ عليكِ يا آنسة نور."

- "تفضل السجائر الممنوعة."

تحقق محروس من عدد السجائر الموضوعة، ثم قال:

- "لكن هذا قليل جدًا يا آنسة نور."

- "ليس معي غيرهم، متى سيخرج نادي؟"

- "صديقك في المنزل الآن."

- "كيف؟!"

- "ستعرفين لاحقًا."

قال عبارته ثم قام من مقعده وغادر وهو يبتسم ابتسامة بها بعض الشكوك، لكن

لا أعلم لماذا يبتسم. اتجهت سريعًا إلى منزلي، أنتظر مكالمة هاتفية من نادي لكي أطمئن أنه عاد إلى منزله، لكن لم تصل منه رسالة بسبب انقطاع الإنترنت، ولم يتصل بي حتى وصلت أمام غرفة الجثة.

أسمع صوت شخص ما يقلب في شيء بالداخل، يبدو أن شخصًا عثر على سري الذي أخفيه! هل من الممكن أن تكون أمي فاتن؟!

أخذت بعض الخطوات ببطء شديد نحو باب الغرفة الموارب قليلًا. لا أريد أن يسمع ذلك الشخص صوتي، لكن ماذا أفعل؟! إذا كانت أمي، ماذا أقول لها عن تلك الجثة؟! أفصح بما أفعله أم أتظاهر بعدم معرفتي بها؟

اقتربت من الباب وأنا أرى شخصًا يتفحص الجثة ويعمل عليها. ليست أمي، فهي لا يمكنها الوقوف. هو شخص غريب يبعثر في أجزاء الجثة يمينًا ويسارًا. هل من الممكن أن يكون ربيع، أم هو حامد صاحب الغرفة؟!

جميعها أفكار مميتة كفيلة أن تدفعني إلى السجن لأقضي المتبقي من عمري فيه. لا أعرف ما يتوجب عليّ فعله. وجدت خارج الغرفة ماسورة حديدية، سحبتها برفق، ثم قمت بدفع الباب، وبكل قوتي ضربت ذلك الشخص على رأسه. صرخ عاليًا وامتلأت جبهته بالدماء، والتفت نحوي وهو يقول:

- "أنا لست سارق؟!"

قالها نادي وهو يتألم ويضع يديه على رأسه. ثم تابعته في الصراخ قائلة:

- "كيف جئت إلى هنا؟!"

- "أحضري لي شيئًا يكتم النزيف."

ركضت بكل سرعتي إلى الغرفة الأخرى وجلبت لنادي بعضًا من القطن ليوقف ذلك النزيف. وضعه على رأسه وهو يجلس أرضًا حتى يجف الجرح.

- "هل تقومين كل يوم بضرب الأشخاص بتلك الحديدة؟!"

- "أنتَ الذي تشبه اللصوص، كيف جئت إلى هنا؟!"

- "عندما أطلقوا سراحي، أسرعت في المجيء إلى هنا لنتخلص من فحص الجثة."

- "كيف أطلقت الشرطة سراحك بتلك السهولة؟!"

ضحك نادي عاليًا وقال:

- "لقد نصبوا علينا، حجزوني في إحدى الغرف حتى تأتي إليهم بالسجائر الممنوعة، ثم أطلقوا سراحي."

ارتفع حاجبي بدهشة قائلة:

- "السجائر أصبحت المقام الأول لهذا العالم."

قام نادي من موضعه متجهًا إلى الجثة ليكمل عمله عليها. اقترب من رأس الجثة، وضع إصبعه السبابة على الجمجمة وقال:

- "يجب أن نبدأ بتشريح الجمجمة."

- "آخر شيء قاله صديقك (عارف) أنه سوف يفحص الأسنان ليتعرف على عمر الجثة."

نظر لي نادي وهو يبتسم ثم قال:

- "سنفحص الجمجمة من الأعلى لنعرف سبب الوفاة، ثم نفحص الأسنان لمعرفة العمر."

- "كل هذه الفحوصات سوف تحتاج معدات كبيرة يا نادي."

- "لذلك قمنا باقتحام المشرحة لتزودنا بالمعدات. اجلِبي لي المنشار الذي قمنا بسرقته حديثًا لقطع عظام الجمجمة."

اتجهت نحو الزاوية حيث وضعت المعدات التي قمنا بسرقتها من المشرحة لجلب ما طلبه نادي، وفي العودة قلت له:

- "هل سنتعرف على سبب الوفاة من الرأس؟!"

- "مرت عليّ الكثير من الجثث التي بها بعض الكسور من الداخل، وكانت هذه الكسور سببًا أساسيًا لوفاة الجثة."

- "أطمح أن تكون تلك الجثة مثلهم لنصل إلى أول خيوط الحقيقة."

قبض نادي المنشار بيده اليسرى، وقبل أن أقوم بوضع الفيشة في كابس

الكهرباء رفعت عيني له قائلة:

- "هل سيفعل صوتًا مزعجًا؟ لا أريد فاتن تكشف أمرنا."

- "من هي فاتن؟!"

- "أمي التي تجلس في الغرفة المقبلة."

- "أخبريها أن تغلق أنفها جيدًا، لأن تلك العظام تخرج منها رائحة تشبه الفأر الميت في خزانة الملابس منذ سنة."

قالها نادي وهو يضحك بهستيريا، ثم قام باستكمال عمله وقطع جمجمة الرأس إلى نصفين. استغرق الأمر بضع دقائق، ثم خرجت رائحة متعفنة مثلما قال، لكن أصبح كل شيء من الداخل ظاهرًا لنا.

اقترب من الرأس أكثر، وبعد دقائق من النظر قال:

- "قلت لكِ سبب الوفاة كسر في الرأس؟!"

- "كيف علمت بتلك السرعة؟!"

- "انظري لمؤخرة الرأس، بها كسور. يبدو أن تلك الجثة تعرضت لدفعة قوية بالرأس أدت للموت سريعًا."

قالها وهو يشير إلى رأس الجثة.

"لم أرَ شيئًا؟!"

"لم تلاحظي تلك الشروخ التي في الأسفل؟ تلك الرأس اصطدمت بشيء قوي، وأدى ذلك الكسر إلى الوفاة."

"لم أفهم شيئًا في التشريح، أنا عاملة في إحدى شركات الإنترنت، إذًا ما هي الخطوة القادمة؟"

"الآن أصبحت لدينا بعض النتائج المفرحة. نعلم أن الجثة توفيت عن طريق كسر في الجمجمة. تبقى لدينا التأكد من العمر والنوع، والمقارنة مع إحدى الأقارب إن وُجد."

"كيف ستكون المقارنة إن أردت مقارنتها مع جثة أخرى؟"

@ART_OF_BOOK

تراجع نادي إلى الوراء، ثم استند على الحائط وقال:

"نقوم باستخراج الحمض النووي من العظام، والأفضل أن نخرجه من الأسنان لأنها تحافظ على الحمض النووي بشكل جيد، ثم نقارنها مع الحمض المستخرج من الجثة الأخرى. وبعد الاطلاع على النتائج، إذا وجدنا تطابقًا فهي تخص تلك العائلة التي أخرجناها منها، وإذا لم تتطابق البصمات الوراثية فهي لا تخص تلك العائلة."

- "متى ستفعل تلك المهمة؟!"

- "سأقوم بخلع بعض الأسنان من الجثة والذهاب بها إلى أحد الأصدقاء في المعامل الجنائية ليقوم بتحليلها، لكن لا توجد نتيجة في حالة عدم وجود الحمض النووي للجثة الأخرى التي نقارنها معها."

- "في تلك الحالة يجب عليّ جلب أسنان الجثة الأخرى لتقوم بالمقارنة."

- "نعم، ومتى ستفعلين ذلك يا آنسة نور؟!"

نظرت إلى الأسفل أبحث عن إجابة لنادي، لكن لا يوجد من يساعدني، وبعد دقائق قليلة من التفكير نظرت له.

- "غدًا سوف أتواصل معك لتأخذ مني أسنان الجثة؟!"

- "كيف ستفعلينها، ومن هي تلك الجثة؟!"

قالها نادي وهو مندهش من إجابتي، يشعر أنني قاتلة متسلسلة تبحث عن الضحايا ليلًا في العتمة، ثم أقوم بزحفهم إلى غرفتي. نظرت له وأنا أشاور في اتجاه الجثة.

- "هيا، قم بأخذ أسنان الجثة وعلّمني كيف فعلتها لأجلبها لك غدًا."

غضب نادي من إجابتي، كان يريد أن يعرف من هي تلك الجثة التي سوف أقتحم جسدها، لكن لا يمكنني البوح بما أفعله في جثة الست نوال التي سوف أسرق أسنانها من المقابر. ضغط نادي على شفتيه حركة تعبر عن مدى كرهه لأفعالي. أخذ ملقاط الأسنان (كماشة) من المعدات القريبة من الجثة، ثم اقترب من الفك العلوي لها وقام بفك بعض الأسنان ووضعها في كيس شفاف متين، وقبل أن يغادر قال:

- "في انتظارك غدًا أيتها القاتلة."

نظرت له دون الإجابة على تلك المزحة السخيفة، أغلقت خلفه باب الغرفة وجلست بجانب الجثة أفكر فيما أقوله لـ ربيع حارس العمارة. يجب أن يوافق على الذهاب معي إلى مقابر (المعبود) الخاصة بعائلة الحج حامد، وسوف نفتح قبر الست (نوال) لأخذ أسنانها ونقارنها مع تلك الجثة. أعلم أنه سوف يتطابق كلاهما ونكشف عن القاتل قريبًا!

مهما غفلت في النوم يستمر الوجع في الرأس لمدة أيام، من النادر ما يخف دقائق ثم يقوم ثانيًا. أعلم العلاج، لكن لم أقدر على الاستمرار عليه. العناية بأمي فاتن كفيلة أن ترهقني، لكن لا يوجد غيري بجانبها. أتمنى أن ألتقي بأبي مرة ثانية ليجمع شملنا مرة أخرى، سأحاول بأقصى جهد أن يعود لأمي مهما تكلفت من محاولات.

قبل النزول سمعت صوت هاتفي يهتز، كانت رسالة نصية من نفس الرقم المجهول يرسل لي نفس الرسالة غير المفهومة (520). لم أفهم حتى الآن الغرض من ذلك الرقم الغريب. نهضت من مطرحي وتحملت وجع الرأس وغادرت غرفتي متجهة إلى ربيع على أمل أن يوافق مرافقتي إلى المقابر، فهو يعلم خباياها هو وثروت الغفير.

قمت بالطرق على باب غرفته، لكنه لم يقم بالرد علي. سمعت صوته قادمًا من الخارج، يجلس على مقعده أمام العمارة ويدندن بأغنية من أغاني الست أم كلثوم، صوته يشبه صوت الحمير. اتجهت نحوه، وعندما سمع خطواتي التفت لي وقال:

- "ينشرح قلبي عند رؤيتك قادمة."

قالها ربيع وهو يتربع في مجلسه. نظرت له متفاجئة من رد فعله، ثم قمت بالوقوف أمامه.

- "هل أنتَ معجب بي؟!"

- "لا، أنا معجب بسجائرك، أين هي؟!"

ينظر ربيع إلى يديّ يتفقدهما جيدًا، لكنه لم يعثر على ما يشتهي.

- "لا يوجد بحوزتي سجائر، لكن أريد منك مساعدة."

- "هل تسجلين لي كما فعلتِ؟"

- "لم أقم بالتسجيل، أنا قادمة إليك أطلب المساعدة فقط، هل ستوافق؟"

- "وما هي؟"

- "أريدك أن ترافقني إلى مدفن الست نوال لجلب شيء من الداخل."

- "ماذا تقصدين بجلب شيء من الداخل؟ تريدين فتح قبرها!"

تغيرت ملامح ربيع المبتسمة التي كان يدندن بها منذ ثوانٍ إلى الانكماش. لا يمكنني الإفصاح عن الحقيقة له، يجب أن أكذب عليه مثلما فعلت مع عاصم، يجب أن أخبره بخبر مزيف يدفعه إلى الأمام ويأتي معي.

- "أريد شيئًا يفيدنا في البحث خلف الحاج حامد."

- "ما نوع الشيء الذي يوجد داخل مقابر الأموات؟"

قالها وهو ينهض من مجلسه، ينظر لي بعين متأثرة بكلامي. تابعته في الرد قائلة:

- "إذا قمت بمساعدتي سأزودك بسجائر ممنوعة."

ضحك ربيع ضحكة عالية، وعاد لمجلسه مرة أخرى وقال:

- "مثل ما فعلتِ من قبل، صحيح؟"

- "هذه المرة اطمئن، لن أخدعك."

- "لست مطمئنًا لأفعالك، لم أتخطَ خطوة واحدة من هنا قبل أن أعلم كل شيء."

- "تعلم عن ماذا؟!"

قلت جملتي بصوت عالٍ وانفعال، ثم تابعت:

- "هل أنتَ لا تريد المجيء معي؟!"

تحركت رأس ربيع بالنفي، لا يريد الذهاب، ثم قال لي:

- "أنتِ خائنة، سوف تحصلين على ما تريدين وتركضين."

أسمع عبارة ربيع وأنا أخرج من جيبي هاتفي الذي يوجد عليه تسجيلاته وهو يعترف بمراقبته للحج حامد. تغيرت ملامحه المتخشبة إلى الوجه اللين.

- "أنا أضحك معك يا آنسة نور، سأرافقك على أي حال، أعلم أنك وحيدة دون رجال، اتبعيني."

قالها ربيع وهو ينهض من مطرحه ويشير لي بيده اليمنى متجهًا للطريق المؤدي للمقابر. ظل يمشي أمامي حتى اقتربنا من المدخل والساعة تدق الثانية فجرًا.

سوف نصطدم بهدوء الأموات، صوت هواء المقابر غير أي صوت تسمعه من قبل، به شيء من الهمس. سمعت بعض الأقاويل أن تلك الرياح هي أنفاس الأموات!

لكن لم أنتبه لتلك المعلومة، أعلم أنها أضحوكة مثل ربيع الذي يمسك أطراف جلابيته بأسنانه ويخطو على أطراف أصابعه. قبل الوصول إلى مدخل المقابر قال لي ربيع في الطريق إنه يريد الدخول دون الاستئذان من ثروت الغفير، إذا علم أننا سنفتح القبر ونأخذ منه شيئًا سوف يبلغ الحاج حامد ويبلغ أيضًا رجال الشرطة عنا، لذلك اخترنا أن نقتحم المقابر دون مرافقته لنا.

لكن الذي يجب علينا أن نستأذن منهم هم الأموات الراقدون أسفل التراب. من نفس مصدر المعلومة السابقة علمت بتلك المعلومة، ولا أعلم أيضًا هل هي صحيحة أم أضحوكة. على أي حال قمت بإلقاء السلام عليهم ثلاث مرات مثلما فعل ربيع:

- "السلام عليكم يا أهل الدار، جئنا في سلام ونغادر في سلام، أنتم السابقون ونحن اللاحقون."

قالها ربيع بصوت خافت وهو يهمس في بطون الأرض، ثم التفت لي وقال:

- "اتبعيني دون حركة عالية."

اتجهت خلف ربيع الذي يتمعن في رخام وأسماء بوابات المقابر، يبحث عن اسم عائلة الحاج (عبد الحميد). بسبب العتمة لم يرَ الأسماء بوضوح. بعد تخطي عدة مقابر توصل ربيع إلى بوابة حديدية مقفلة بسلاسل، تلك هي المدفن المراد حفره والبحث داخله، لكن ينقصنا شيء! توقف ربيع أمام المدفن، ثم ضرب بيديه على جبهته وقال:

- "لقد نسينا عدة الحفر، كيف سنفتح قبرًا بدون عدة؟"

- "قبل الحفر يجب علينا فتح تلك البوابة يا نبيه!"

نظر لي ربيع، ثم جلس وهو يضع يديه على رأسه، وبعد تفكير لعدة ثوانٍ قال:

- "سنأتي غدًا بحوزتنا ما يساعدنا في الفتح."

- "لا يمكنني الانتظار لغدٍ، يجب عليّ فتح القبر اليوم."

- "كيف سنفعلها يا آنسة نور؟ الباب مقفل جيدًا، حتى مدفن الست نوال يجب فتحه بأدوات حفر، وهي ليست بحوزتنا."

- "لكن يوجد هنا شخص معه كل ما نريد."

قلت جملتي وأنا أنظر إلى غرفة الغفير (ثروت). نظر لي ربيع وهو يرفع حاجبًا وينزل الآخر.

- "لا يمكنني فعلها، لا يمكنني، لا."

قالها وهو يرتعش، لم أرَ ربيع هكذا من قبل.

- "هل أنتَ تخشى أن يفعل فيك شيئًا؟"

احمر وجه ربيع هذه المرة، ذلك ما أردته أن يتغلغل من الداخل كي يقفز من مكانه ليجلب لنا ما نحتاجه من الغرفة.

- "أنا لا أخشى شيئًا، لكن هذه مغامرة يا آنسة نور، لو علم ثروت بتلك اللعبة سوف يبعثنا للسجن سويًا."

- "سوف أراقبه، وأنتَ تجلب عدة الحفر، وأنا سأقوم بجلب مفتاح البوابة الخاص بعائلة عبد الحميد ونخرج."

نهض ربيع من مطرحه قائلًا:

- "أتمنى ذلك، لكن يجب أن ندخل ونخرج قبل أذان الفجر؛ لأنني أراه كل يوم يصلي في الجامع الذي أصلي فيه."

- "إذًا أسرع في الدخول."

ذهب ربيع إلى غرفة المعيشة الخاصة بثروت الساكنة بجانب مدخل المقابر. أخذ بعض الخطوات حتى وصل أمام الغرفة، يقف على حافة العتبة وينظر لي، ثم التفت مرة أخرى أمامه وبدأ في المشي بخطوات خافضة. دخل دون الحاجة إلى كسر أي شيء، باب الغرفة التي يعيش فيها ثروت مفتوح، موارب قليلًا ليجلب له بعض الهواء أثناء نومه على الأريكة المهترئة، ينقلب على يمينه ويساره ويرتدي ملابسه البيضاء التي يرتديها الفلاحون أثناء عملهم في الأراضي الزراعية، سروال وثوب خفيف يمتص عرقه. يفتح فمه ويطلق صوتًا مفتعلًا من حنجرته، يشبه صوت الشيشة أثناء سحب الأنفاس منها.

دخل ربيع ثم تابعته في الدخول. غرفة صغيرة بها أريكة وحصيرة زرقاء في المنتصف، وعلى اليمين منضدة صغيرة يوضع عليها لمبة جاز يستخدمها ثروت في التجوال ليلًا بين الأموات، ويوجد أيضًا بجانب المنضدة بابور نحاسي قديم يستخدمه في طهي الطعام وغليان بعض من القهوة. حياة قديمة من جميع الاتجاهات، تفاصيل الغرفة توحي لنا أننا نتجول في عام 1895، يبدو أن ثروت يعيش حياة القدماء بمفرده دون الحاجة لأحد.

التفت ربيع لي عند وصوله إلى منتصف الحصيرة وقال:

- "صه."

- "لم أسمعك، ارفع صوتك قليلًا."

- "لم أرَ أدوات الحفر."

قالها ربيع بصوت منخفض، فهمت ما قاله من حركة شفتيه. نظرت حولي أبحث عن المكان الذي يدس فيه ثروت أدوات الدفن، لكن لم أرَ في الغرفة غير المنضدة الصغيرة والبابور النحاسي وقط أسود عينه مثل لون السماء، أخشى أن يكون شيطانًا. ينظر لي وهو يتخطى بأقدامه الصغيرة، رأسه لم تتجه لشيء آخر إلا سواي، يتحرك ببطء شديد حتى دخل أسفل الأريكة التي يتمدد عليها ثروت.

نسمع صوته وهو يحتك في إحدى الكراكيب المدفونة بعيدًا عن الأنظار. ظهرت على ربيع ابتسامة عريضة ثم أشار لي بأنه سيتفقد أسفل الأريكة المنغمس عليها ثروت. اقترب منها وانحنى قليلًا ووجد ما نبحث عنه، لكن لم نرَ القط الأسود الذي دخل منذ قليل، يبدو أنه شبح أو روح من أرواح الأموات النائمة في الخارج

وتريد مساعدتنا فيما نريد تنفيذه.

سحب ربيع أدوات الحفر بدماثة واحدة تلو الأخرى: فأس ومجرفة صغيرة، كانت كفيلة تلك الأدوات أن تنجز ما نريده. تبقى لنا المفتاح الخاص ببوابة المدفن. لا يوجد في الغرفة شيء يدل على وجود مفاتيح فيها، شيء مثل المكاتب الخشبية التي بها بعض الأدراج المقفولة أو خزنة بداخلها بحر من الأسرار والأوراق. كل شيء في الغرفة قديم، لكن سهل علينا ثروت الأمر لم نتعثر في البحث عن المفاتيح، عثرنا عليها بسهولة وهو يتقلب بجسده على أحد الجوانب، سمعنا صوت المفاتيح المعلقة في رقبته.

تبقى لنا الشيء الأصعب الآن، وهو الحصول عليها. كيف يمكننا الاقتراب من ثروت ونقطع ذلك الخيط الأبيض الملفوف حول رقبته؟ ذلك الخيط هو المفاتيح!

- "أنا قمت بمهمتي، تبقت مهمتك."

قالها ربيع وهو يتحرك على أطراف أصابعه ناحية باب الغرفة، وفي يديه أدوات الحفر. يقف على الباب ليراقب أي شخص يقترب من الغرفة مثلما فعلت معه. ذهبت إلى ثروت وأنا خائفة من أصوات حنجرته، يجب عليّ الاقتراب منه كثيرًا حتى أقطع ذلك الخيط دون إحداث أصوات تقلقه.

كلما اقتربت من رقبته أرتعب من شهيقه المرعب القادر على سحب كف يدي داخل بطنه المنفوخة. لم تساعدني رقبته السمينة في حل العقدة من حولها. قمت بقطع الخيط، وكان اختيارًا خاطئًا؛ لأن بعد فعل ذلك تسللت بعض المفاتيح لتصطدم بالأرض وتُحدث صوتًا قادرًا على إيقاظ الأموات بالخارج.

تصلب كل شيء في جسدي، وارتعشت يدي، وانزلق العرق من على جبهتي وضرب في ملابس ثروت. أتمنى الآن أن تنشق الأرض وتلتهمني قبل إفاقة ثروت من فراشه، سوف يضع أجسادنا مع الأموات ولم يدرك أحد اختفاءنا.

حمدت ربي أن ثروت ينام ولا يبالي ما يحصل حوله، إذا انفجرت الكرة الأرضية سيبقى في مكانه حين تقوم الساعة. وجهت نظري لربيع الذي تخشب في مكانه بسبب ما حدث وابتل سرواله. أشار لي بالقدوم سريعًا. أخذت المفاتيح ورحلنا. خرجنا من الغرفة متجهين نحو بوابة عائلة الحاج عبد الحميد. توقفت أمام البوابة أحاول فتحها، يوجد في يدي مفاتيح لا حصر لها، لا أعلم أي واحد منها هو

المراد. قمت بعدة محاولات حتى توصلت للمفتاح المتميز باللون الأصفر. تغيرت ملامحي أنا وربيع عندما سمعنا تلك التكة المفرحة.

دخلنا سويًا ووقفنا أمام مدفن يوضع عليه رخامة باسم المرحومة (نوال عبد الحميد). أخرجت هاتفي وقمت بتشغيل المصباح لينير لنا ما ننوي فعله.

- "جاء دورك لتقوم بمهمتك أيها الغفير الجديد."

- "اسكني الزاوية تجنبًا للأتربة."

تراجعت قليلًا بعيدًا عن المساحة التي يقف داخلها ربيع، يضع أقدامه على يمين ويسار المدفن ليبقى المدفن بين ساقيه. بعد ثوانٍ قام بالضربة الأولى في الأرض. استمر ربيع في فتح المدفن حتى ظهر له أحجار صفراء متراصة بجانب بعضها، قام بخلعها واحدة تلو الأخرى حتى ظهرت سلالم النزول للأسفل.

- "جاهزة للدخول إلى عالم الأموات؟"

نظر لي ربيع وأنا أبتسم، أتذكر تلك الجثة التي تسكن غرفتي. لم يعرف أنني أعيش مع الأموات منذ فترة وأحتمي خلفهم أيضًا. تابعت النظر حتى اقتربت من فتحة المدفن.

- "تعلم ما هي الكلمات التي يجب قولها عند النزول؟"

- "أنا لست بارعًا في محادثة الأموات يا آنسة نور، إذا كنتِ تريدين فتفضلي."

أشار بيديه إلى مدخل المدفن، يريد مني أن أقود المسار حتى نصل لجثة نوال.

- "سأنزل بمفردي، وتقوم أنتَ بمراقبة المدفن من الخارج."

- "لم نتفق على هذا يا آنسة نور."

- "ولم نتفق أيضًا أنك تلازمني النزول، يجب وجود شخص يراقب ما يحدث هنا!"

أومأ ربيع برأسه ثم جلس على سلم المدفن ينظر ناحية البوابة الحديدية. تابعت خطواتي متجهة نحو الأسفل، قمت بتوجيه مصباح هاتفي إلى الأمام لينير لي الطريق. يصعب عليّ ما أفعله الآن، لم أقم باقتحام مقابر من قبل ولم أنوِ فعلها مرة ثانية، لكن يجب الآن أن أتخلص من ذلك الرعب الذي يسكن قلبي.

أرتعب من الهواء القادم من الأسفل، هواء شديد البرودة يشبه ثلاجة الأموات التي قمت بزيارتها في مشرحة (زينهم). نزلت بعض الدرجات حتى وصلت أمام غرفة الجثة، وقبل أي شيء رفعت يدي اليمنى قائلة:

- "السلام عليكم يا أهل الدار، جنت في سلام وأغادر في سلام، أنتم السابقون ونحن اللاحقون."

قلت الجملة السابقة ثلاث مرات مثلما فعل ربيع من قبل. جف حلقي من الخوف عندما وصلت إلى غرفة الموتى. مهما أوصف لك من الرعب لم تشعر بما أشعر به الآن!! أشعر بضيق في التنفس واختناق رهيب يشبه الشخص الذي يطلق آخر أنفاسه.

من الواضح أن هذا المكان جيد في أن تتراجع عن كل أفعالك المستورة والمشبوهة ويغفرها الله لك، لكن أود أن أقول لك: سوف يأتي الوقت وتُغلق تلك المغفرة، وتأتي هنا مكتوف اليدين تريد أن تُغفر ذنوبك، ولكن ستأتي متأخرًا.

تابعت خطواتي وضربت بمصباحي في جميع الغرف الموجودة، لم أجد أي جثة! تبقت غرفة وحيدة أتمنى أن أعثر فيها على ما أبحث عنه. اقتربت منها ويدي ترتعش، يظهر من الغرفة أطراف كفن أبيض. من المفترض أن الجثة تحللت، لقد مر عليها الكثير في الأسفل، وأتمنى أن تكون عظامًا.

اقتربت من الكفن أكثر، يتبقى لي خطوة واحدة وأكون بجانبها، ترتعش يدي أكثر كلما اقتربت من الجثة، وهذا أمر طبيعي. تنتابني هواجس مرعبة، أشعر بأن الجثة سوف تنهض من مكانها وتنظر لي بغضب بسبب ما أفعله فيها!

محاولة تخطي تلك الأفكار قاتلة للذهن، الجلوس بجانب جثة شيء مخيف أيضًا. تلاشت جميع الخيالات بعدما أغمضت عيني عدة ثوانٍ، عُدت إلى إدراجي واقتربت من عقدة الكفن أعلى الرأس وقمت بفكها بهدوء تام. ابتلعت ريقي كل ثانية من شدة الخوف، وترتجف يدي مما أفعله، وتختنق أنفاسي من رائحة المدفن الرهيبة والمخلوطة بالتحلل والرمال.

انتهيت من حل العقدة وبدأت تظهر عظام الجثة شيئًا فشيئًا: قمة الرأس، ثم الجبهة، ثم العيون، ثم فتحة الفم والأسنان!

لم أصدق عينيّ مما أشاهده رعب رهيب وقادر أن يفزعني ويلحقني بكوابيس

لشهور قادمة، لكن أتمنى ألا يحصل لي ذلك.

أخرجت من جيبي (كماشة) وكيسًا بلاستيك شفافًا لكي أفعل مثلما فعل (نادي) بالأمس، كسر سن أو أكثر من الفك الأعلى ثم أقوم بوضعهم داخل الكيس. وضعت الكماشة عند السن الأول للجثة وانتهيت من كسره، ثم الثاني، وعند الثالث! سمعت صوتًا في الخارج، كان أذان الفجر. لم أتمالك أعصابي عند سماع الأذان، إذا لم أخرج في الحال سيكشفنا ثروت الذي يذهب للصلاة في هذا الوقت!

- "يا آنسة نـ... "

أسمع بعض الكلمات من ربيع لكن لم أفهم شيئًا.

- "يا آنسة نـ. نـ."

كرر ربيع نفس الجملة مرة ثانية، لكن أنا..

أسمع صوت الحجارة، يبدو أن ربيع يغلق المدفن وأنا بداخله!

سقطت من يدي الكماشة والكيس الشفاف بجانب الجثة، ونهضت من مطرحي وركضت سريعًا نحو سلم الخروج لأجد المدفن مغلقًا.

في تلك اللحظة شعرت بخوف مهيب، لم أقع في تلك المصيبة من قبل. توقف صعود أنفاسي عندما رأيت الحجارة مقفلة عليّ، تجلطت دمائي في ذلك المشهد، يتابعه مواقف مخيفة لا حصر لها. ظهر صوت من العدم وقال:

- "آسف يا آنسة نور، سوف ننكشف لو لم أقم بغلق المدفن. سوف أعود بعد ذهاب ثروت للنوم مرة أخرى، لا تقلقي، سأخرجك."

يجب عليّ الجلوس هنا لمدة لا أعرفها، يجب عليّ الجلوس في المقابر، لا، ليس في المقابر، بل في المدفن من الداخل، أجلس مع جثة كنت أقوم بسرقتها منذ قليل. لا أعلم ماذا يفعل المرء في تلك الأوقات، هل يجب أن أدعو الله أن يتخطى ذلك الوقت سريعًا أم أغلق عيني حتى يأتي ربيع مرة أخرى كما قال؟

تخطيت عدة خطوات وجلست على عتبات السلم، أصرخ من الداخل وأنتظر ربيع يعود. أضم يديّ على صدري لكي أدفئ نفسي من الخوف الذي ينتشر في جميع أنحاء جسدي. يرتعش جسدي بشدة، تصطدم أسناني مع بعضها. زاد الرعب أكثر عندما سمعت صوتًا قادمًا من داخل الغرفة الصغيرة التي توجد بها الجثة!

هل من الممكن أن تتحرك وتأتي نحوي؟ تتعرق جبهتي وينبض قلبي بسرعة فائقة، يقترب من القفز خوفًا مما هو قادم. أصوات أقدام تزحف ببطء، ورائحة غبار ممزوجة بروائح الجثث المتحللة. كل شيء يحدث الآن يقول إن الخوف قادم أسرع من أي شيء، لا يوجد مفر أهرب منه! لا يوجد بوابة أخرى غير التي أجلس بجانبها، كيف أتجنب تلك الجثة القادمة نحوي الآن؟!

ترتعش كل نقطة صغيرة في جسدي، يقف شعر رأسي تعظيمًا للرعب القادم إلينا. تقترب، أراها بمصباحي الذي قمت بتوجيهه ناحية غرفة الجثة.

تعلم شيئًا؟ أنا أريد الصراخ بشدة، لا أتحمل كمية الخوف هذه، لم أشعر بها من قبل. تنهمر الدموع مني وتسقط على ملابسي التي ابتلت بكثرة. أغلقت هاتفي ليصبح المدفن مظلمًا، لم أرَ يدي من العتمة ولم أرَ الجثة أيضًا، لكن أشعر بها تحوم حولي!

أشعر بأنفاس دافئة لا تتناسب مع البرودة التي تعرضت لها منذ دخولي القبر. بسبب خوفي الشديد قمت بتشغيل المصباح مرة ثانية، وعند التشغيل ظهرت أمامي الجثة واقفة مثل المانيكان، ملفوف حولها الكفن الأبيض ولم يظهر منها شيء.

في تلك اللحظة لم أقدر على كتمان الصراخ، قمت بالصراخ عاليًا لكي يسمعني الجميع ويسحبني من يد تلك الجثة التي تأخذ روحي. صرخت ليسمعني ثروت ويسحبني إلى السجن، فهو أهون بكثير من الجلوس هنا. بعد دقائق من الصراخ المستمر سمعت صوت شخص يقترب من المدفن ويقول:

- "سبحان الله، سبحان الله، من هناك؟"

أسمع صوت المدفن يُفتح، بدأت تظهر ملامح ثروت لكن لم أره كليًا، ولم أتحمل حتى ينقذني، وبعد ثوانٍ شعرت بأحد يلمسني من الخلف، لم أقدر على التخيل، لقد فقدت الوعي من كثرة الخوف!

***

(3)

(المستعمرة)

أقف أمام خزانة ثياب مملوءة بالحشرات، لم أستطع الهروب بعيدًا مما أشاهده. تفتح الخزانة من تلقاء نفسها، تظهر جثة تأكلها الديدان. أشعر بشيء على جسدي، فهي الحشرات تقترب مني وأنا أقف متخشبة، متصنعة الحركة وأنا لم أقدر عليها. في نفس اللحظة تنظر لي الجثة بعينها المنزوعة وتنهض لكي تسحبني إليها، لكن ليست جثة عادية، هذه أنا.

قمت من نومي بشهقة مبذولة الفعل، كان كابوسًا مدمرًا للرأس. أشعر بذلك الوجع الذي تعودت عليه، وجع رهيب في جمجمة الرأس أوشك على الانفجار! لا أعلم أين أنا؟! أرى بعض الطشاش، عيني لم تفتح بأكملها. بعد إفاقة استغرقت خمس دقائق تلاشت الغمامة وظهرت كل تفاصيل الغرفة التي أجلس فيها، فأنا أعلمها جيدًا، هذه غرفتي، لكن أين أمي؟! أنا لم أرها في فراشها.

قفزت من فراشي سريعًا بسبب الذي أشاهده، أرى أمي (فاتن) ملقاة على الأرض وبجانبها الكرسي الخاص بها. نزلت بجانبها ووضعت يدي على خدها، قمت بضربها عدة ضربات خفيفة كي تفيق، لكن لم تفق.

- "أمي، هل حصلتِ على جرعتك أم لا؟"

لا يوجد رد.

اتجهت مسرعًا نحو الجرعات المخزنة في الثلاجة، فهي لم تحصل على جرعتها اليوم من لقاح السرطان. قمت بتجهيز الجرعة ووضعت مليلترات من اللقاح في إبرة الضغط، ثم ضربتها في رقبتها قبل فوات الميعاد.

خفضت ضربات قلبي عندما وضعت يدي على نبضها وتأكدت أنها تنبض! أنظر لسقف الغرفة وأتذكر ما حدث في المقابر، كيف جئت إلى هنا؟

لم أحصل على إجابة لأنني لم أفكر كثيرًا، بعد ثوانٍ فعلت أمي شهقة تأكد إفاقتها.

- "ماذا حصل لي؟"

- "تريدين مفارقتي يا فاتن؟"

قلت جملتي وأنا أضمها إلى صدري كي أشعر بإحساس الأمان مرة ثانية، فأنا أفتقده بقوة.

- "ماذا حدث لي يا نور؟"

- "يجب عليّ أنا من أقوم بتلك السؤال، ما الذي حدث لي؟"

- "هل فقدتِ الوعي مثلي؟"

- "نعم، آخر شيء أتذكره قدوم الجثـ."

- "أكملي، أنا لم أفهمك."

نهضت من مطرحي وأنا أساعد فاتن في الجلوس على مقعدها المتحرك، ثم غادرت الغرفة أقف في الخارج، أفكر ماذا حدث لي، أنا لم أتذكر شيئًا.

هلِ علم ثروت بفعلتنا! من الذي فتح لي القبر وقت الصراخ؟ ربيع هو الذي يعلم كل شيء! ذهبت إليه سريعًا أضرب على باب غرفته.

- "من؟"

- "افتح يا ربيع، هذه أنا."

تخشب ربيع من رؤيتي، فهو لم يصدق عينه أنه يراني.

- "أنا فقدت الأمل يا آنسة نور، ظننت أنه حدث لكِ مكروه وسوف ألبس في مصيبة."

- "ماذا حدث ومن الذي فتح المدفن لي؟"

- "ثروت!"

قالها ربيع وهو يبتسم، لكن أنا فقدت النطق.

- "هل ثروت سمح لنا بالمغادرة بعد ما علم باقتحام المدفن والغرفة؟"

ترك ربيع الباب مفتوحًا ليعود ويكمل إعداد بعض الشاي لنفسه وقال:

- "ثروت ليس بتلك الرحمة."

- "ما الذي حصل ولماذا أغلقت القبر؟"

- "أغلقته لأنني رأيت ثروت قادمًا نحونا يبحث عن مفاتيح بوابات المقابر. ارتعبت من فكرة أنه يكشف أمرنا، أغلقت المدفن وركضت سريعًا أختبئ، لكن لاحظت أنه يفتح القبر مرة ثانية ليبحث عن مصدر الصراخ القادم من الأسفل، وقبل أن يعلم بوجودك ضربته على رأسه وأكملت مكانه فتح القبر. وجدتك ملقاة على الأرض بسبب شيء ما، وقبل أن يفيق ثانية حملتك على كتفي وجئنا إلى هنا!"

- "هل مات ثروت؟"

- "لا تقلقي يا آنسة نور، إنها ضربة خفيفة سيفيق ويكمل يومه."

- "وإذا فاق، فهل لم يبحث عن الفاعل؟"

- "لا، لا! نحن لم نسرقه، كل شيء في مكانه."

- "سوف يذهب نحو الجثة ويعلم بسرقتنا لبعض الأسنان خاصتها يوجد بجانبها كيس شفاف وقع من يدي."

- "هل تقصدين ذلك الكيس؟"

أخرج ربيع من جيبه الكيس الشفاف يحمل أسنان الجثة.

- "لم أعلم أنكِ بذلك الذكاء يا ربيع."

- "لا، لن تحصلي عليه قبل إخباري ماذا تفعلين به!"

- "هل تريد سماع بعض التسجيلات مرة أخرى؟"

- "يمكنني أيضًا إبلاغ الحاج حامد عن الذي قمتِ به اليوم وعن سرقة جثة شقيقته. كلانا يحمل أسرار الآخر، نحن متساويان."

- "لماذا تريد معرفة ما أفعل به؟"

- "الفضول يقتلني أكثر من شرب السجائر الممنوعة، ولن أصدق أي أكذوبة أخرى."

- "ذلك الكيس سوف.. "

لم أكمل عبارتي، اقتحمت الغرفة بعض الرجال أصحاب الشوارب السميكة، ويرأسهم رجل يرتدي معطفًا جلديًا ويوجد في حوزته سلاح من ماركة الشرطة.

- "أنت ربيع عبد الباري؟"

- "نعم يا بيه!"

- "تعال معانا."

ألقي القبض على ربيع بتهمة اقتحام المقابر وسرقة ما بداخلها. لم أنطق بشيء، في هذا الوقت أشبه التمثال وأشاهد فقط. عندما سأل ذلك الغريب عني قلت له إنني ساكنة في ذلك العقار وجئت لربيع لأقوم بتكليفه بالعمل فقط. غادر الرجال وهم يضعون في يد ربيع أساور حديدية. أثناء القبض عليه سمعت بعض الكلمات، لقد وقع من ربيع تحقيق الشخصية الخاص به وتعرف ثروت على الشخص الذي قام بضربه وسرقته وأبلغ الشرطة سريعًا. هل أنا المتسببة في ذلك؟

لم يهمني ذلك الأمر، الذي أدخل السرور على قلبي الآن ذلك الكيس الشفاف الذي سقط من يد ربيع أثناء وضع الأساور حول يديه. لم يلاحظه رجال الشرطة ولم يلاحظه ربيع أيضًا، ذلك الكيس وهو يقع. التقطته وأنا الابتسامة لم تفارق وجهي، وأتذكر كلمات ربيع:

"لا تقلقي يا آنسة نور، إنها ضربة خفيفة سيفيق ويكمل يومه."

***

الجلوس على قهوة الباشا يذكرني بعاصم وهو يجلس أمامي، أتذكر ملامحه التي تشبه الرجال الخارقة، فهو خارق في أفعاله أيضًا. لم يتخلَّ عني لحظة ولم يرفض مرافقتي في مشاكل ليس لديه شأن فيها، كان يوافق على أي شيء دون مقابل غير الباقية الذين يحفون خلف كل شيء مقابل السجائر الممنوعة. كنت أظن أن نادي مثله، لكن تغيرت فكرتي عنه اليوم. اقتربت الساعة السادسة، وهذا الوقت الذي يأتي فيه نادي، نتقابل ليأخذ مني أسنان الجثة ويستخرج منها الحمض الذي نقارنه لنتأكد من نسب الجثة لمن؟!! اشتد عليّ وجع الرأس، يزداد الألم أكثر عن المرة السابقة كما قال لي الطبيب، سيزداد كل مرة إذا لم أنتظم على العلاج.

يبدو أنني سأقوم بكسر القاعدة وسوف أتابع علاجي الخاص.

وصل نادي وسحب مقعده ثم جلس أمامي وقال:

- "هل تأخرت في موعدي؟!"

- "لا، لقد جئت في موعدك المحدد."

- "هل نجحتِ في جلب ما طلبته؟!"

- "نعم، ها هو!"

أخرجت من جيبي ذلك الكيس، نظر له نادي مندهشًا! كان يظن أنني لم أقم بجلب ما يطلبه.

- "كيف فعلتِ هذا؟"

- "أصبحت مهنتي الآن، احذر مني، الأيام القادمة سأتنافس معك في التشريح."

- "تريدين رأيي؟ أنتِ بارعة في أي شيء تضعين يديكِ فيه، تشبهين المحققين."

أسمع كلمات نادي وأنا أرى وجه عاصم فيه، كان يقول لي تلك الكلمة أنني أشبه المحققين كما

- "نور، هل أنتِ معي؟!"

قاطعني عن خيالي الذي أحبه.

- "نعم، أنا معك، أشكرك على هذه المجاملة، متى ستظهر النتيجة؟!"

- "سأبلغك فورًا عند الظهور."

ألقيت السلام على نادي ثم نهضت من مطرحي، متجهة نحو الطبيب، رأسي تنفجر من الألم لم أتحمله. أوقفت سيارة أجرة لتنقلني إلى عيادة الطبيب، وعند الوصول دخلت إلى عيادته أصرخ عاليًا:

- "أنا لم أتحمل، لم أتحمل، يجب ملاحقتي!"

قلت عبارتي وأنا أقف في منتصف العيادة وأضع يدي على رأسي، اقتربت من الحائط وقمت بضرب رأسي بكل ما أتيت من قوة، عدة ضربات قادرة على فتح رأسي كي تنزف الدماء بغزارة. كلما ينخفض الألم أقوم بتكرار الضربة مرة

أخرى حتى انعدمت الرؤية وأصبح الظلام سيد اللحظة. آخر شيء رأته عيني هي المساعدة الخاصة للطبيب، كانت تسعى لإفاقتي وتصرخ ليقوم شخص بإنقاذي. أغلقت عيناي وأنا لم أشاهد شخصًا يقترب لي.

لم يتخطَ الكثير، لاحظت رجلًا يقف يضع يديه على رأسي ويفعل شيئًا، وبعد ثوانٍ سمعت عبارة:

- "سوف أظل بجانبها حتى تفيق، لا تقلق يا دكتور"

- "أين أنا؟"

أرى طشاشًا ولا يمكنني رؤية الوجوه، أحس بشيء ما مربوط على رأسي.

- "الأستاذة نور فاقت يا دكتور."

قالت هذه الجملة امرأة سمينة، أرى حجمها ولم أرَ باقي التفاصيل. بعد ثوانٍ عاد الرجل الذي يرتدي الملابس البيضاء ويضرب ضوءًا أبيض في عيني ويقول:

- "كنتِ على وشك أن تخربي عينك، لكن ستتحسنين بعد قليل. إذا أردتِ قتل نفسك مرة أخرى افعليها خارج عيادتي، أنا لست مسؤولًا عن أفعالك المجنونة. يجب عليكِ اتباع هذا العلاج وإلا ستنفجر رأسك المرة القادمة."

يبدو أنه الطبيب الذي كان يتابع حالتي، أراه بصعوبة، تصعب عليّ فتح عيني كليًا. غادر الغرفة بعدما اطمأن على حالتي ووضع ورقة بين يدي.

انتظرت ثلاثين دقيقة حتى يعمل مفعول الكبسولة التي وضعتها المساعدة في فمي، ثم عادت صحتي كما جئت، لكن يوجد على رأسي قماشة بيضاء ملفوفة حول جبهتي.

- "ما هذا؟"

- "لا تحركي شيئًا من مكانه، تعرضتِ رأسك لجرح وقام الطبيب بخياطته."

- "رأسي تؤلمني يا أيتها السمينة؟!"

- "لا أسلم من لسانك، أنا التي أنقذتك منذ دقائق."

- "لم أتذكر شيئًا، يجب عليّ المغادرة، جئت إلى هنا بسبب وجع رأسي، الآن أنا في أحسن حال وسوف أتابع علاجي بنفسي."

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

- "لم تجدي شخصًا ينقذك مرة ثانية."

- "لا تقلقي، أنا من ينقذني ربي، لستِ أنتِ."

غادرت عيادة الطبيب وأنا أبحث عن بعض الراحة، لكن لا أحب الجلوس في العيادات، أحب الجلوس بجانب أمي، وصلت أمام غرفتي ثم دفعت الباب لأجد أمي أمامي تصرخ من الجرح الذي أصيب رأسي.

- "من فعل ذلك؟!"

- "لا تقلقي، جرح بسيط سوف يزول قريبًا."

قلت عبارتي وأنا أجلس على سريري لأخذ قسط من الراحة، اقتربت مني لتتفحص رأسي.

- "ليس بسيطًا يا نور، الجرح كبير."

- "لا تقلقي يا أمي، أنا أعلم أنه بسيط، أهم شيء أريد النوم الآن."

"تفعلين كما يفعل والدك، يخرج ويأتي ثانية ومعه كل مشاكل الحياة، يسرق ويهرب ويدفع الملايين لشراء سجائر من الصعب تداولها"

تجمدت قليلًا عن النطق عند سماع كلمات أمي، نهضت من مطرحي واقتربت منها قائلة:

- "ماذا قلتِ؟!"

- "لما أقول شيئًا اذهبي للنوم."

- "لا، قلتِ إن أبي يشتري سجائر ممنوعة بملايين، وهي من الصعب تداولها."

ابتعدت أمي قليلًا عني تهرب من الإجابة كما أفعل أنا معها، اقتربت منها مرة أخرى.

- "ما الذي تخفينه عني يا فاتن؟! هل أبي يعمل في شيء آخر غير تجارة السيارات؟!"

نظرت لي وعينها تلمع قليلًا، أخذت نفسًا طويلًا ثم قالت:

- "كان يعمل في تجارة السجائر الممنوعة. اقتنع بكلام أصدقائه وقام ببيع كل

شيء من تجارته في السيارات واحتكم على مبلغ كبير، ثم اشترك معهم في جلبها من الخارج. في ذلك الوقت كانت السجائر تشبه الذهب في سعرها، الجميع يشرب سجائر بكثرة شديدة، وبعدما منعت الحكومة صنعها في البلاد قرر والدك شراء كمية كبيرة من الخارج كي يستثمرها هنا ويكسب الملايين منها. اجتمعوا جميعًا ووضعوا أموالهم على بعضها واتفقوا على ذلك، وبعد يومين جاء اليوم المحدد لتبعث لهم السجائر من الخارج موضوعة في بعض الحاويات، وفي طريقها إليهم قامت بعض القراصنة بإغراقها، وخسر والدك وأصدقاؤه كل أموالهم."

- "كيف أخفيتِ عني كل هذا؟!"

- "طلب مني والدك أن أخفي عنك هذا الأمر حتى ينجح فيه، لكنه لم ينجح واستمر في الفشل مرة أخرى. بعد فترة من تلك الحادثة، قرر أن يفعلها ثانيًا، لكن هذه المرة غير السابقة. المرة الأولى كان بحوزته ماله، لكن في تلك المرة لم يكن بحوزته شيء. مدّ يديه لكل معارفه، وقام ببيع كل أملاكه، واستجمع مالًا يقارب المال الذي يريده، واشترك مع أصدقائه مرة أخرى لجلب السجائر من الخارج، لكن!! كانت صدمة علينا جميعًا عند سماع خبر غرق تلك الحاويات مرة أخرى. لم أستحمل ذلك الخبر، وحصل لي شلل نصفي و.."

- "كذبتِ عليّ في كل شيء يا أمي، حتى مرضكِ. قلتِ لي انزلقت قدماكِ على إحدى درجات السلالم كي تُخفي ما فعله والدي، تستغلين أنني مشغولة عنكِ وأقضي وقتي كله في العمل."

- "لا أحب تشويه صورة والدكِ المميزة أمامكِ، كان يحبكِ وما زال يحبكِ، لكنه غادر وهرب بعيدًا. دائمًا كنتِ تحاولين أن تعلمي لماذا أنا أكره والدكِ، كل الذي قلته ليس هو السبب."

مسحتُ بيدي اليمنى تلك الدموع المنزلقة على خدي سريعًا وقلتُ:

- "وما السبب؟"

- "بعدما خسر والدكِ كل أمواله التي استلفها من جيرانه وأصدقائه، هرب منهم قبل أن يطلبوا منه تسديد ما أخذ. بدأ الجميع يبحث عنه، لكن لا أحد يعرف طريقه. كانت تأتي الناس إليّ تطالب بأموالها، لكن لم يكن في يدي شيء لأفعله. أقول لهم أنا لست زوجته، لقد انفصلنا، وهرب."

- "كل ذلك الوقت وأنا لم أعلم بأن أبي تاجر سجائرا من الممكن أن نعلم مكانه الآن؟"

ART_OF_BOOK

- "كيف لم يعثر عليه أحد؟! كيف تفعلين أنتِ ذلك؟!"

- "أعرف بعض الأشخاص الذين يحملون كمًا هائلًا من السجائر، يمكنهم معرفة والدي."

قلتُ جملتي وأنا أتجه ناحية خزانة الثياب أبحث عن صورة له. أخرجتُ كل الكراكيب القديمة حتى عثرتُ على صندوق نحاسي قديم، قمتُ بفتحه وأخرجتُ منه صورة لوالدي وهو يقف مع أحد أصدقائه. وضعتها في جيبي وخرجتُ من باب غرفتي وأنا أسمع أمي تقول:

- "إلى أين تذهبين؟"

لم أقف للرد عليها، كان عقلي يفكر في كيفية العثور على أصدقاء والدي. من الممكن أن يعلموا شيئًا أو يعلموا أين يسكن؟! أول شخص جاء في ذهني هو (درويش) الذي يشرب سجائره في الحافلة، أشعر بأنه كان من ضمن مستوردي السجائر الممنوعة ويعلم كل أماكن التجار.

استقللتُ الحافلة، وبعد نصف ساعة توقفت أمام بيته في (باب الشعرية). أقف أمام باب منزله، لا تخطر على بالي كلمات أقولها له. ضربتُ جرس الباب وأنا لم تحضر أي كلمات على لساني. أسمع صوت قدمه يقترب من الباب الذي فتحه على عجلة.

- "نعم."

قالها شاب وسيم صاحب قوام عريض. ارتبكتُ قليلًا، كنتُ أنتظر أن يفتح لي الأستاذ درويش صاحب الجسد السمين. بعد ثوانٍ استجمعتُ سؤالي وقلتُ له:

"أين الأستاذ درويش صاحب المنزل؟!"

لم يجب على سؤالي، رأيتُ يدًا سمينة تُوضع على كتف الوسيم وتشير له بالذهاب إلى الداخل.

- "من الذي يسأل عليّ؟"

كان يقولها درويش وهو يظهر من خلف الباب، لم يُكمل سؤاله، استعجب قليلًا

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

ثم تابع:

- "أنا أتذكركِ أنتِ.."

- "أنا نور التي اقتحمتْ منزلك من قبل."

من الصعب أن يفكر شخص بأنكِ اقتحمتِ منزله. خرجت عبارتي دون التفكير فيها، لكن من العجيب أن جملتي جعلت درويش يبتسم، ومن المدهش أيضًا أنه اقترب مني ليعانقني!

أقف متخشبة من فعله، كنتُ أنتظر منه الصراخ في وجهي أو أن يقوم بطردي خارج منزله، لكنه لم يفعل ذلك.

- "آسف، أنا متأسف جدًا، فعلتها دون قصد، كنتُ أريد أن أشكركِ على ما فعلتِه معي."

ينطق درويش كلماته بلهفة وخجل، لم يكن درويش الذي كان يوجه أمام وجوهنا سلاحًا ويريد قتلنا، لم يكن ذلك الشخص صاحب الجسد المخيف أبدًا. تغيرت معاملته معي وتغيرت نبرات صوته الخشنة، ولم أعرف السبب حتى الآن. ابتعد عني قليلًا وتابع كلامه:

- "أعلم أنكِ لم تفهمي شيئًا، لكن أريد أن أشرح لكِ، تفضلي للداخل."

أشار درويش لي بالدخول. أسمع بعض الاحتفالات، يبدو أن هناك زفافًا صغيرًا بالداخل. انتظرته ليغلق الباب كي يسبقني بخطوات. أكملتُ طريقي خلفه، وبعد المشي في ممر صغير توصلنا إلى صالة المنزل. رأيتُ أناسًا كثيرين يجلسون على مقاعدهم، وأطفالًا صغارًا يركضون خلف بعضهم، وإنارة صفراء وخضراء وحمراء، لكن لا يوجد عريس. توجد فقط امرأة ترتدي فستانًا ورديًا يلمع، لون بشرتها ينير المكان، ينسدل شعرها البني على كتفها، تنظر للجميع وتظهر الفرحة في عينيها. يبدو أنها كانت تنتظر تلك السعادة منذ زمن!

طلب مني درويش الصعود إلى الطابق الثاني كي نبتعد عن ضوضاء الاحتفال. صعدتُ بعض الدرجات ثم دخلتُ غرفة هادئة بها سرير صغير، وبجانبه منضدة يوضع عليه برواز بداخله صورة لدرويش وزوجته. تفقدتُ باقي الغرفة حتى يأتي درويش، لكن لم أجد شيئًا مثيرًا فيها. سرحتُ في كل شبرٍ فيها حتى جاء درويش، وفي يديه كوب من عصير البرتقال، فمددتُ يدي قائلة:

@ART_OF_BOOK

- "شكرًا."

- "أنا الذي أريد أن أشكركِ."

يلفظ كلماته وهو يجلس أمامي مبتسمًا. أخذتُ رشفة من كوب العصير وقلتُ له:

- "عن ماذا!"

- "عن مساعدتكِ لي يومها!"

- "لا أفهم عن ماذا تتكلم يا أستاذ درويش؟!"

- "تلك اللقاح كان سببًا في إسعاد عائلتي مرة أخرى. تعلمين أن هذا الحفل بالأسفل بسببكِ أنتِ."

- "أنا!"

وضعتُ كوب العصير جانبًا بعد سماع كلمة درويش الغريبة. تظهر على وجهي معالم عدم فهم ما يقوله لي.

- "نعم أنتِ، كنتُ على وشك أن أفقد الأمل في شفاء زوجتي، وبعد مقابلتكِ ليلة اقتحامكِ أنتِ وصديقكِ وتبادلنا الصفقات، تغيرت حياة زوجتي. أخذت اللقاح، وانصرف المرض من جسدها، وعادت الحياة إليها مرة أخرى."

توقف درويش عن الكلام عند سماع صوت الباب يُفتح، تدخل امرأة جميلة صاحبة الشعر البني التي كانت تجلس بالأسفل تنتظر عريسها، لكنها ليست عروسًا، بل زوجة درويش!! لم أتخيل لحظة أن تلك التي رأيتها تحتضر في زوايا القبو يومها هي التي تقف أمامي الآن كانت بلا شعر، وكانت مهلهلة الملابس، وتعاني من جفاف رهيب يأكل جسدها، لكن الآن تغير حالها.

- "هل هذه زوجتك!"

قلت عبارتي بنبرة مندهشة وأنا أنهض من موضعي لأقترب من زوجته كي أحتضنها. انشرح صدري بالفرح عند رؤية صحتها تحسنت بشكل ملحوظ.

- "أنتِ مريم؟!"

- "نعم أنا! هل تغير شكلي كثيرًا؟"

- "نعم نعم، تغير للأحسن. أنا أشعر بسعادة منذ رؤيتكِ بهذا الشكل."

- "الفضل لكِ في الأول والآخر."

- "الفضل لله.. يومها جئنا في الوقت المناسب لنستفيد من بعضنا."

- "الحمد لله."

انصرفت زوجة درويش بعد أن باركث لها على شفائها. أعلم أن درويش هو الذي طلب منها الانصراف لأتكلم معه بحرية.

- "آسف يا نور، أدخلتكِ في مواضيع ولم أستفسر منكِ عن سبب ذلك الجرح الذي في رأسكِ، هل أصابكِ مكروه؟"

- "لا، بعض الجروح البسيطة، وتشفى سريعًا."

- "أتمنى ذلك. أشعر بأن مجيئكِ هنا تريدين الاستفسار عن شيء؟"

ارتعشت يدي وتبعثرت أفكاري، وتاهت كل أسئلتي عن سبب مجيئي إلى الأستاذ درويش، لكن قلتُ له:

- "جئتُ إليك أبحث عن والدي."

- "والدك! لم أفهم شيئًا."

- "بدون الدخول في تفاصيل لا تهمك في شيء، لكن والدي صابر الأحمدي. لا أعرف هل سمعتَ الاسم من قبل أم لا، لكن أنا لا أعرف عنه شيئًا منذ فترة اختفائه. تركنا أنا وأمي دون رجل، وعرفتُ حديثًا من أمي أنه كان يتاجر في السجائر الممنوعة، وشارك بعض التجار في جلب السجائر من الخارج، ولكن للأسف أنت تعلم أن تلك الصفقات لم تتم. من بعدها ونحن لا نعرف عن أبي شيئًا، جئتُ إليك على أمل أن تتعرف عليه."

أخرجتُ من جيبي صورة والدي وأنا أضع السبابة على أبي الذي يقف بجانب صديقه. التقط درويش الصورة وتمعن فيها قليلًا، ثم نظر إليّ وقال:

- "أنا أعرف الشخص الذي يقف بجانب والدكِ، اسمه (عاطف الدراملي). هو ليس صديقي، لكن تعاملتُ معه كثيرًا في منطقة الجراج التي نعقد فيها اتفاقات

ومزادات لبيع كميات كبيرة من السجائر."

- "ما هذا الجراج الذي تحكي عنه؟!"

- "بعدما قررت الدولة غلق الإنترنت ليلًا، حصلت لنا بعض العواقب في إرسال عناوين بعضنا لبعض، فاتفقنا جميعًا أن نعقد صفقات كل خميس في جراج بعيدًا عن الشرطة. في ذلك المكان نشتري ونبيع السجائر ونستبدلها أيضًا، ونفعل كل شيء دون تدخل الشرطة."

- "أين ذلك الجراج لأذهب إليه؟!"

عمّ الصمت قليلًا على درويش، ثم قال بخجل وصوت متقطع:

- "للأسف يا نور، دخول ذلك المكان صعب، ويمكن مستحيل."

- "لماذا؟ فهي منطقة عادية مثل باقي المناطق!"

"ليست منطقة عادية، فهي مغلقة جيدًا بالحراسة المخفية، والدخول إليها من بوابة حديدية صغيرة الحجم محجوبة عن رؤية الآخرين، ويجب أن يكون معكِ دعوة، كارت صغير يثبت أنكِ منهم ولستِ خائنة."

توقف لساني عن الكلام وتشتت عقلي بعد تفكير دام لثوانٍ قلتُ:

- "هل من الممكن أن.."

قاطعني درويش وسبقني، وأخرج من جيبه دعوة الدخول وقال:

- "أنا مديون لكِ عما فعلتِه معي ومع زوجتي، ولستُ مانعًا في إعطائكِ الكارت كي تدخلي إليهم، لكن أحب أن أحذركِ مرة أخرى، تلك الناس لا تلعب. إذا شعر أحد أنكِ لستِ منهم سيضربون الصفافير، ليركض الجميع، وسيقبضون عليكِ ليحققوا معكِ."

- "وماذا تعني تلك الصفافير!"

"هي صوت عالٍ يعني بوجود خائن بين الناس يريد حبسهم جميعًا، وليعلم مكانه الجميع يسلطون عليه ضوءًا أحمر."

- "هذه عصابة وليست أناسًا عاديين!"

- "نعم، عصابة لبيع السجائر الممنوعة دون تدخل الشرطة."

- "إذا علمت الشرطة بمكانهم ستدمرهم."

- "لذلك السبب هم يحمون أنفسهم."

- "حسنًا، سأقابلك مرة أخرى لأسترجع لك تلك الدعوة، وأشكرك أيضًا عليها."

- "أتمنى أن نتقابل مرة ثانية يا نور."

قالها درويش وعيناه بهما شيء من البؤس، شيء يقول إن ذلك المكان يشبه خلية تحمي التجار من الحبس. كتب لي درويش عنوان المكان في ورقة، وطبقها جيدًا، وقدمها لي. غادرتُ منزله وأنا أنوي الذهاب غدًا على أمل أن أقابل (عاطف الدراملي)

أو على أمل أن أعثر على والدي (صابر الأحمدي).

***

أقف في غرفتي أمام مرآة تعكس لي ملابسي قميصًا أزرق وبنطال جينز. قمتُ بإزالة ذلك الرباط الملفوف حول رأسي ليظهر الجرح الصغير، نظرتُ له بتمعن ثم ذهبتُ لأخذ حقيبتي ووضعتها على كتفي، وبداخلها بعض الملابس القديمة، وأغلقتها جيدًا كي تظهر من الخارج وكأنها محملة بالسجائر، وذلك ما أريده. غادرتُ غرفتي وفي يدي ورقة مكتوبة بخط اليد من الأستاذ درويش، عنوان ثقيل على القلب ويرعبني كلما قرأته.

بعد ساعة من ركوب الحافلة وصلتُ إلى مكان اسمه (قلعة الكلاب)، يشبه الصحراء ويوجد به حراس مخفيون. عندما تخطّت قدماي أراضي قلعة الكلاب بدأت تلتفت إليّ نظرات الرجال بكثرة، جميعهم يرتدون ملابس غريبة وقبعات تُخفي وجوههم. ليس هو ذلك الجراج الذي أريده، لكن من هذا المكان سأستقل حافلة أخرى تُدخلني إلى المكان المراد دخوله. أخرجتُ من جيبي ورقة الأستاذ درويش لتفقّد رقم الحافلة التي ستنقلني إلى مكان الجراج (ج م ر 222)، هذا هو الرقم ويجب البحث عنه.

اقتربتُ من أحد الرجال قائلة:

"هل تعرف حافلة بتلك الأرقام؟!"

@ART_OF_BOOK

قلتها وأنا أمدّ يدي لشخص عابر ليقرأ ما كُتب فيها، نظر إليّ دون اهتمام وغادر مكانه دون الإجابة عليّ.

بحثت كثيرًا لكنني لم أرها، لا يمكنني العثور عليها. أثناء البحث سمعتُ صوت رجال يتشاجرون مع بعضهم، رجل يدفع رجلًا آخر خارج حافلة قديمة ومتهالكة ويقول له:

- "ليس بحوزتك دعوة؟!"

ردّ عليه ذلك العجوز المنقلب على الأرض وسط الرمال:

- "لكني أريد الذهاب معكم."

- "نحن لم نذهب للترفيه أيها العجوز."

قالها رجل أسمر البشرة، صاحب شعر مجعّد وجسد مفتول العضلات، يرتدي من النصف الأسفل سروالًا أبيض، أما من النصف الأعلى فهو عارٍ. دفع الرجل العجوز خارجًا ثم نظر إليّ بغضب قائلًا:

- "هل أنتِ مثله؟!"

لم أسمعه، ظلت عيناي معلّقتين على أرقام الحافلة للتأكد منها قبل الصعود. نعم، نفس الحروف والأرقام (ج م ر 222).

- "أنتِ أيتها البلهاء!"

- "أنا.. أنا لست مثله، أحمل دعوة، أحمل دعوة!"

كانت عبارتي تخرج دون ترتيب. أخرجتُ دعوة درويش ليتفقدها ذلك المفتول، نظر إليها عدة مرات ثم عاود النظر إليّ مرة أخرى. أقف أمامه أرتعش من الداخل، أتحدث دون صوت بقول:

إذا انكشف أمري ماذا أفعل؟! ما الذي يتوجب عليّ فعله في ذلك الوقت؟ لكن بعد ثوانٍ مدّ ذراعه الأسمر بالدعوة لي مرة أخرى وقال:

- "سليمة، هيا اصعدي لنتحرك."

عادت لي الحياة مرة أخرى، كنتُ أخشى أن يكشفني ذلك الرجل. صعدتُ

الحافلة لأرى بعض طبقات المجتمع بالداخل؛ في الأمام تجلس الطبقات التي تملك المال بكثرة، وفي الوسط تجلس الطبقات الأقل مالًا، أما في الأخير أجلس أنا ومعي بعض الناس الذين لا نعرف عن المال شيئًا غير اسمه.

جلستُ بجانب امرأة عجوز يتخطى عمرها ستون عامًا، تنظر من النافذة وتشاور لزوجها وتقول له إنها ستعود مرة أخرى وتحمل المال من بيع السجائر الممنوعة.

"هل هذا زوجك؟!"

"نعم!"

التفتت إليّ وتمسح دموعها التي تسقط أسفلها.

"لماذا لم يصعد هو وتنتظريْ أنتِ؟! فهو يتميز بالصحة ويتحمل الطريق عنكِ!"

- "يتميز بالصحة، لكن انكشف سره للجميع."

- "ماذا تقصدين؟"

- "نحن نبيع السجائر المغشوشة للتجار، سجائر فارغة من الداخل، لم يُكشف أمرها أحد حتى يعود المشتري لمنزله. عند الشراء لا يمكنك فتحها، لكن يمكنك تجربة واحدة منها، وتلك الواحدة تكون مملوءة وليست مضروبة."

- "وحتى الآن لم يكشفكِ أحدا!"

قلتُ تلك العبارة بصوت مرتفع كاد أن يسمعني صاحب البشرة السمراء، وضعت العجوز يديها على شفتيّ لتكتم صوتي.

- "ستفضحين أمري، اخفضي صوتك."

- "كيف تفعلين ذلك، لستِ خائفة منهم؟"

- "هذه أول مرة أفعلها، الذي كان يذهب هو خليل زوجي الذي دفعه المفتول منذ قليل."

- "أتمنى أن تعودي لزوجكِ مرة ثانية."

- "هل أنتِ أيضًا ذاهبة لبيع السجائر مثلي؟!"

@ART_OF_BOOK

قالتها العجوز وهي تنظر لحقيبتي المملوءة. توقفتُ عن الإجابة بسبب تحرك الحافلة، أغلقت الأبواب وبدأت الرحلة إلى منطقة الجراج. عدتُ النظر إليها مرة أخرى وأنا أبحث عن إجابة، لكن الشرح قلبي عندما رأيتها تنظر من النافذة توذع زوجها مرة أخرى. نظر كلٌ منا إلى شيء يفكر فيه حتى الوصول إلى وجهتنا.

وأثناء الطريق لم أرَ مباني ولم أرَ أناسًا، طريق خالٍ من أساسيات عمران الأرض، وقبل الدخول إلى المكان المراد الوصول إليه رأيتُ يافطة صغيرة عليها:

"أهلًا بكم بمستعمرة الجراج."

وصلنا أمام مدخل مظلم لا يمكنك رؤية ما يفعلونه في الداخل، لأنه من الخارج سور مرتفع يشبه الجدار الجليدي لا يمكنك تسلقه. توقفت الحافلة أمام بوابة الدخول، وقبل النزول وقف صاحب البشرة السمراء في منتصف الحافلة وقال:

"إذا كان يوجد بيننا خائن، أنصحك بعدم الدخول، سيتم القبض عليك فورًا وينكشف أمرك، ولن تعود إلى الديار مرة أخرى."

قالها ثم غادر الحافلة وطلب من الجميع النزول بالترتيب. أقف بين الطبقات وخلفي السيدة العجوز، ننتظر دورنا على بوابة الدخول. أخرجتُ من جيبي الدعوة ليكشف عليها رجل أسمر نحيف يقف على بوابة صغيرة، وفي يديه جهاز يخرج منه ضوء أحمر يمرّ على الدعوة، وعند الإضاءة بالأخضر يسمح لك بالدخول، وإذا استمر اللون الأحمر سيتم طردك، وفي تلك الحالة سيقبضون عليك.

أتى دوري، كنتُ من المحظوظين الذين دخلوا من البوابة لأشاهد عالمًا آخر غير العالم الخارجي. أناس في كل مكان، سوق مزدحم بحاملي السجائر الممنوعة، في الخارج محرّمة لكن هنا مباحة للجميع. بسبب كثرتها في كل مكان أشم رائحتها وكأني أسحب عدة أنفاس منها. أرى الجميع يقف في عدة أماكن ويفرشون قطعة من القماش على الأرض ليُوضع عليها بضاعتهم، وأشخاصًا آخرين يقفون يعرضون السجائر وهم يحملونها. في تلك المستعمرة لا يوجد فرق بين الطبقات، كلنا نريد نفس الشيء: السجائر الممنوعة.

كان يتمنى ربيع مشاهدة هذا المشهد المذهل بالنسبة له، لكنه الآن يسأل ويجلس بين السجناء يَشتم بين أصابع أرجلهم لكثرة ضيق المكان.

بعد أن تفقدتُ بعيني جميع زوايا المستعمرة، ضرب في عقلي ذلك السؤال الذي جئتُ من أجله، وهو البحث عن والدي!! أخرجتُ من جيبي صورة والدي وصديقه وعرضتها على المارين في السوق، لكن لم يتعرف عليهما أحد. السوق مزدحم وأصوات البائعين تقتحم أذنيك دون استئذان.

اقتربتُ من أحد الجالسين وانتظرتُ حتى تخلّص من الزبائن الواقفين أمامه ثم قلتُ له:

- "هل تعرف هؤلاء الأشخاص؟!"

أخذ مني الصورة وتفحّصها وضغط على أسنانه ثم عاود النظر إليّ.

- "ابحثي عنهم عند ذلك الرجل."

أشار بإصبعه إلى رجل قصير القامة يقف دون حمل شيء في يديه. أعلم جيدًا أنه لم ينظر إلى الصورة من الأساس، كان مشغول البال بحقيبتي المملوءة. اقتربتُ من ذلك الرجل الذي أشار إليه ثم قلتُ له بصوت خافت:

- "هل تعرف هؤلاء الأشخاص؟!"

لم ينظر إليّ بل طرح بيده الصورة لتقع من يدي بجانب قدميه.

- "آسف، أنا لا يمكنني الرؤية، هل تريدين شيئًا قبل بدء المزاد؟!"

"كنتُ أريد..."

لم أكمل عبارتي، قاطعني صوت قادم من مبنى مرتفع لرجل يمسك في يديه مكبر صوت ويقول:

- "الآن المزاد ليومنا المميز، سنبدأ المزاد على السجائر الممنوعة القديمة، هل من مشتري؟!"

سمعتُ صوت الجميع يصيح بالفرح، الجميع يرفع يديه يريد الشراء. خرج بعض الرجال المهندمين يرتدون بدلات سوداء بربطات عنق حمراء، يحملون منضدة يُوضع عليها بعض السجائر غريبة الشكل. لم أرَ مثلها من قبل، فهي تبدو قديمة كما قال الرجل المهندم.

بدأ المزاد، لكن لم يدفعوا أموالًا، بل يدفعون سجائر أيضًا:

"مائة علبة!"

"مائة وعشرون علبة!"

"مائة وخمسون علبة!"

"مائة وسبعون علبة!"

كانت تلك الأرقام تُنطق من أفواه الزائرين للمزاد، يدفعون منات السجائر مقابل علبة وحيدة، لكنها زاهدة الأنفاس. بعد أن ألقى كلٌ منهم كلمته، خرجت العجوز التي قابلتها في الحافلة من وسط الحشد لتقول عبارتها بكل ثقة:

"مائتان وخمسون علبة."

مائتان وخمسون علبة من السجائر الممنوعة مقابل علبة وحيدة فقط من السجائر القديمة. أرقام لم أسمع عنها من قبل، لكن المثير في تلك الأرقام: كيف تدفع تلك العجوز مائتين وخمسين علبة وهي لا تحمل الكثير منها؟!

صمت الجميع، وتكلم الرجل الذي يقف على المبنى.

- "تقدّمي أيتها العجوزة لتفحص سجائرك، لقد وقع عليكِ المزاد."

ظهر على وجهها العرق بكثرة، رأيتها تقترب مني وتقول بصوت خافض:

- "أنا ليس معي ما يكفي من السجائر، زوّديني بسجائرك الساكنة في تلك الحقيبة وسوف أردّهم لكِ."

نظرتُ لها وعيناي تتسعان بدهشة مما تتفوّه به، فهي تشارك في المزاد ولا يمكنها الدفع، وضعت نفسها في مأزق الذهاب بلا عودة.

"هيا أيتها العجوزة، تقدّمي."

قالها رجل المزاد صاحب الوجه الشاحب والملابس المهندمة.

نظر الجميع للمرأة العجوز التي تقف بجانبي تنتظر مني أن أخرج من حقيبتي سجائر، هي لا تعلم أن حقيبتي فارغة، محشوة بالملابس القديمة فقط!

زاح الجميع بعضهم حتى يتفرغ الطريق للعجوزة كي تتقدم لرجل المزاد، وقبل أن تتحرك خطفت حقيبتي وسارعت في خطواتها ولم تلتفت خلفها. أنا لم أركض

خلفها، لكن أشفق عليها مما سيحدث لها.

وصلت العجوزة أمام المبنى ثم صعدت بعض الدرجات حتى وصلت بجانب صاحب المزاد، أفرغت حقيبتها الأولى وخرجت منها بعض السجائر القليلة. نظر لها رجل المزاد، وهي تتصاعد أنفاسه من صدره، وينطق بضيق:

- "هذا كل ما لديكِ؟"

- "لا سيدي، تلك الحقيبة هي المملوءة بالسجائر."

تقدمت لهم بحقيبتي التي سرقتها منذ دقائق، أنظر إليهم وأنا أرتعش خوفًا مما سيحدث الآن، أرى أحد رجال البذلة السوداء يلتقط الحقيبة الأخرى التي أشارت إليها العجوزة، قام بفتحها، وعند النظر فيها اتسعت عيناه وارتفع حاجبه ثم نظر لصاحب المزاد.

- "هذه فارغة سيدي، مملوءة بالملابس فقط."

ظل صاحب المزاد يبحث فيها حتى أفرغها بالكامل واكتشف خدعة العجوزة.

- "أنتِ تخدعين مستعمرة الجراج؟!"

تراجعت العجوزة للوراء وهي تشاور بيديها نافية!! تنفي أن تلك الحقيبة من أملاكها، بدأت تلمع عيناها بالبكاء، وعند اقتراب رجال البذلة السوداء إليها أخرجت بعض الكلمات التي تتهمني فيها أنني صاحبة الحقيبة، وأنا من دفعتها لفعل تلك الخدعة.

نظر الجميع نحوي، أقف في المنتصف، لم أصدق ما قالته العجوزة عني. لم أفتح فمي بشيء، لم أقدر على نطق كلمة واحدة تبرئ نفسي مما سيحدث لي بعد قليل. رأيت صاحب المزاد ينظر إلى أحد الرجال ويأمره بفعل شيء ما، وبعد ثوانٍ انطلقت أصوات الصفافير، أسمعها بصوت عالٍ، وبعد تلك الصفافير رأيت ضوءًا أحمر قادمًا من الأعلى مُسلّطًا عليّ ليقول للجميع أنني خائنة!

حصلت حالة من الفزع، بدأ الجميع في الركض بعيدًا عني، يختبئون ويصرخون بصوت مرتفع. لم أفهم شيئًا، أنظر إليهم وأشعر كأنني حشرة تفوح منها رائحة كريهة. نظرت فوقي لأرى الضوء الأحمر مسلطًا عليّ، وبعدها لم أرَ شيئًا إلا السواد الدامس. وضع شخص غريب على رأسي غمامة ودفعني بقدميه كي أسقط أرضًا،

وكبل يديّ ببعض الأساور، ثم قام بسحبي إلى مكان لم أعرفه.

ظلام..

كل ما أراه الآن هو الظلام، أشبه بالأموات المدفونين أسفل التراب، لكنني أختلف عنهم قليلًا. أجلس على كرسي حديدي في غرفة شبه خاوية، كل ما أعلمه أنني مكبلة الأيدي، أنتظر من يُفرج عني.

بعد انتظار طال لساعات، سمعت صوت تكة باب يُفتح قادمًا من خلفي، صوت أقدام تتحرك حولي تتفقد شيئًا ما، وبعد ثوانٍ من الحركة أُفرج عن عيني لتصطدم بالنور. أزالوا تلك القماشة السوداء، لكنني لم أز شخصًا يقف أو يجلس أمامي، فهو خلفي. سمعت صوت امرأة تقول:

- "هل ستعترفين بسهولة أم أتجه لأشياء لا أحبها ولن تحبيها أنتِ أيضًا؟"

- "أين أنا؟!"

- "أنتِ في مستعمرة الجراج، يبدو أن الذين أرسلوكِ للبحث خلفنا لم يزوّدوكِ بمعلومات كافية عنا."

- "أنا جئت هنا بمفردي، لم يرسلني أحد."

- "درويش جلال درويش، هذا هو قائدك."

تحركت خطوات وهي تأتي من خلفي وتجلس أمامي. امرأة ترتدي بذلة عسكرية زرقاء، وعلى صدرها شعار (خراس المستعمرة).

- "قلتُ لكِ جئت بمفردي للبحث عن والدي."

- "هل هذا ملجأ لتأتي وتبحثي عن والدك يا آنسة نور؟"

نظرتُ لها بدهشة، فأنا لم أجلب معي أي تحقيق شخصية كما قال لي درويش.

- "لا تنظري لي هكذا، نحن نعلم كل شيء عن الأشخاص الذين يدخلون هنا، ونعلم أيضًا عن والدك صابر الأحمدي."

انتفض قلبي بعد سماع تلك الجملة، لم أتخيل أنني سأراه مجددًا، لم أتخيل سماع اسمه مرة أخرى. قلت لها بلهفة:

@ART_OF_BOOK

- "هل هو هنا؟! أريد مقابلته، أبلغيه أنني أريد مقابلته."

- "يجب أولًا أن تُخبريني من هو درويش صاحب كارت الدعوة."

قالتها وهي تضع يديها على خدها وتقترب مني.

- "هو شخص يساعدني في البحث عن والدي، وقال لي إنني سأعثر عليه هنا لأن والدي كان تاجر سجائر ممنوعة."

- "كيف يساعدك رجل شرطة سابق في البحث عن والدك تاجر السجائر؟"

لم أعلم هل هي صادقة في قولها عن درويش أم لا، لكنني لم أشعر يومًا أن درويش من رجال الشرطة المتقاعدين، ولم يهمني ذلك.

- "أنا لا أعلم عنه شيئًا سوى أنه رجل صالح ويساعدني."

- "أنتِ لا تريدين مساعدتي، وأنا لا أريد إبلاغ ملاك المستعمرة أنكِ خائنة. في تلك الحالة سيفعلون معكِ كما فعلوا مع العجوزة."

- "ماذا حلّ بها؟"

أخرجت من جيبها هاتفًا مسجلًا عليه فيديو للعجوزة وهي تقف أمام بئر لا نهاية له، وقام أحد الأشخاص بدفعها داخله، آخر شيء سمعته مسجلًا في الفيديو هو صوت صراخها وصوت اصطدام جسدها بالقاع.

- "يمكننا عقد اتفاق يا نور، أنتِ تزوّدينا بمعلومات كافية عن درويش، ونحن نزوّدك بمعلومات عن والدك، وفوق هذا سنفرج عنك."

- "أنا لا أعرف عنه شيئًا أكثر من الذي أعلمتكِ به، هو رجل صالح يساعدني فقط، ويشرب السجائر الممنوعة أيضًا."

- "يبدو أنكِ لا تقبلين بالاتفاق."

قالت عبارتها وهي تنظر يمينًا إلى لوح زجاج أسود يشبه المرآة، لكن أعلم أن خلف ذلك الزجاج أشخاصًا يتابعون النقاش. تابعت كلامي معها، لكنها نهضت من مكانها وغادرت الغرفة ولم تسمعني. جاء رجال يرتدون بذلًا سوداء، حملوني إلى الخارج ووضعوا على رأسي قماشة سوداء حتى وصلنا إلى مكان لا أعلمه. أزالوا تلك القماشة لأرى نفسي واقفة أمام بئر لا نهاية له!

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

سيفعلون معي كما فعلوا مع العجوزة، سيقتلون روحًا من أجل معلومات لا أعرف عنها شيئًا. أنا حقًا لا أعلم عن درويش غير أنه رجل صالح ساعدني في الوصول إلى هنا كي أعثر على والدي، ولم أصل إليه. أصبحت رؤية والدي من الصعب، بل من المستحيل، فأنا على أعتاب الموت. سأرافق العجوزة في رحلتها. بعد ثوانٍ قليلة سيركلني شخص بقدميه الثقيلة كي تصطدم أشلائي بقاع البئر المظلم. قبل أن يدفعوني إلى الموت، ارتفع الستار ليشاهد الجميع قرار موتي. لم أتخيل أنني سأكون عبرة لمن يفعل مثلي. أنا حتى الآن لم أفعل شيئًا سوى البحث وراء والدي، هل هي تلك الجريمة التي فعلتها؟!

أقف أمام حشد كبير من مستخدمي السجائر الممنوعة، والحق يقول إن ذلك الحشد الكبير هم من يجب عليهم حتفهم داخل البئر ولست أنا، لكن تلك المستعمرة هدفها الأول والأخير هو السجائر الممنوعة التي أصبحت مثل الهواء، وصعب عليهم عدم استنشاقه.

أقف على حافة البئر مكبلة الأيدي، أنتظر قرار موتي، أسمع هتاف الآخرين بأن ما يفعلونه بي هو الحق. أغمضت عيني ونظرت أسفلي، أسمع رجلًا ينطق ببعض الكلمات قبل موتي.

- "سنشاهد الآن خائنة جديدة لمستعمرتنا تريد هدم ما قمنا ببنائه من أجلكم ومن أجل مشاركتنا التي يمنعها الآخرون، فهي مبعوثة منهم لتفقد أمننا ورجالنا الذين يعملون ليلًا ونهارًا لحماية تلك المستعمرة التي تقدم لكم السجائر التي تحبونها. وكما تعلمون من قبل، تلك المستعمرة لا تعرف شيئًا غير العدالة، ويجب تطبيقها على كل من حاول هدم هذا المكان. لذلك قررنا نحن، لم نحكم عليها بالموت، بل أنتم الذين تحكمون عليها. من أراد منكم أن نفرج عنها فليتقدم إلى الأمام، ومن أراد منكم أن نحكم عليها بالموت فليتراجع إلى الوراء، والعدد الأكبر في الاختيار سننفذه."

قال الرجل كلماته ثم نظر إليهم ينتظر قرارهم. بدأ البعض يلتفتون حول بعضهم ويهمسون في الأذن ويدفعون بعضهم إلى الوراء ليحكموا عليّ بالموت. بعد دقائق تقدمت قلة قليلة من الناس إلى الأمام، والباقي تراجع إلى الخلف، فأنا الآن ضمن عداد الموتى أعلم أنهم سيفعلون ذلك، لكن أؤمن بأن شيئًا ما سيحدث!

- "بعد ما قمتم بالتصويت لتلك الخائنة، والنتيجة واضحة أمام الجميع، فأنتم

تؤيدون الموت، فليتقدم راكل الأقدام!"

قال تلك العبارة نفس الرجل السابق الذي يقف على حافة المبنى بجانب صاحب المزاد، يبدو أنه المتحدث الرسمي لتلك المستعمرة.

ظهر أمامي رجل من العدم، فأنا لا أحب النظر إليه، أريد أن يركلني دون رؤيته. أخذت بعض الأنفاس وانتظرت ركلته:

- "نورا!"

سمعت اسمي يُنطق من راكل الأقدام الذي يقف أمامي ويبعد عني سنتيمترات قليلة، لكنني أعرف ذلك الصوت، أعرفه جيدًا. رفعت رأسي للأمام لأراه:

- "عاصم!"

قلتها بشهقة عالية، تلك الصدمة كفيلة أن تدفعني إلى الوراء وتسقط بي في قاع البئر.

- "كيف وصلتي إلى هنا يا نور؟!"

رجع عاصم إلى الوراء قليلًا يجهز قدمه لدفعي أسفل البئر.

- "ماذا تفعل أنتَ هنا؟! أنا أبحث عنك منذ فترة؟!"

- "جئتُ إلى هنا للبحث عن والدك، كيف تتجرئين على خيانة صاحب المزاد؟!"

كان يضغط على أنامله ويرفع أطراف عينيه للنظر إلى مالك الجراج، فهو يجلس في الأعلى ينتظر سقوطي في البئر ويحتفل بأنه يمتلك مستعمرة لا يمكن خرق قوانينها بسهولة. صمد سنين يحمي ذلك المكان من رجال الشرطة، يضع فيه كل قوانينه، ولا يمكن لشخص أن يقول له ماذا تفعل، فهي أملاكه. هو أول الأشخاص الذين قاموا باستيراد السجائر وعبرت دون حدوث عقبات.

- "ماذا تنتظر يا عاصم؟ هيا اركلها."

نظر عاصم إلى صاحب العبارة، فهو مالك المستعمرة، رجل زاهد يجلس على مقعد خشبي طويل القامة. أما ملابسه فهي مثل البقية، لكن الذي يميزه حقًا تلك اللحية البيضاء والشارب المقصوص، والوحمة الحمراء التي تقع بجانب عينه اليمنى. فأنا أتذكر تلك العلامة الحمراء، رأيتها في شخص ما منذ قليل نعم، صورة

شعرت بأن شيئًا ما يحدث وسوف ينقذني. جاء الوقت كي ألحق نفسي قبل فوات الأوان. لم أعرف ما الذي يتوجب علي فعله، لكن قلت لصاحب المستعمرة:

- "يمكنني قول شيء قبل أن يركلني!"

أخرجت عبارتي وأنا أنظر إلى صاحب المزاد. نظر إلى رجاله وإلى الحشد الذي يقف بالأسفل، ثم أشار بيديه أن يسمح لي بالكلام.

- "اقترب مني يا عاصم، بسرعة اقترب."

- "ماذا تريدين؟!"

- "أخرج من جيبي تلك الصورة بسرعة."

وضع عاصم يديه في جيبي، أخرج الصورة ثم نظر فيها وقال:

- "ما الذي أفعله؟"

- "أوصلها لصاحب المزاد."

ركض عاصم مسرعًا على الدرجات المؤدية إلى المقر الذي يجلس فيه. بعد أن التقطها ونظر إلى صورة أبي، قال لي:

- "أنتِ تعرفين صابر الأحمدي؟"

تابعته بلهفة سريعة:

- "نعم، هذا والدي!"

أمر صاحب المزاد بالإفراج عني. صاح الجميع في الأسفل، لكن لم ينظر لأمرهم أحد. تحركت من أمام البئر متجهة إلى غرفة مغلقة تشبه نفس الغرفة التي كنت أجلس فيها مع أمراء حارسة المستعمرة. قام عاصم بفك الأساور المحاطة بيدي، ثم دخل علينا عاطف الدراملي وقال:

- "أنتِ نور ابنة صابر."

اقترب مني ليتحقق من ملامحي، وضع يديه على وجهي وتابع كلامه:

- "أنتِ تشبهين أباكِ حقًا! كيف لا أعلم ذلك منذ قدومكِ هنا."

- "أنا جئت إلى هنا للبحث عنه، أين هو؟"

نظر عاصم وعاطف إلى بعضهما، ثم غادر عاطف وهو يقول:

- "سيعلمكِ عاصم كل ما تريدين معرفته، أنا الآن يجب عليّ أن أخرج لأوذع زوار المزاد وأتأسف لهم عما حصل منذ قليل، وسوف أعود لكم."

- "ما الذي حصل لوالدي يا عاصم؟ تكلّم!"

- "اجلسي يا نور، هذه قصة طويلة."

- "تكلّم، أنا أسمعك!"

جلس عاصم ثم نظر إليّ دون نطق حرف واحد، وبعد ثوانٍ من النظر بدأ بالكلام:

"والدك صابر من ضمن تجار السجائر الممنوعة التي تدخل في الخفاء دون علم الشرطة، ويساعده في ذلك صديقه عاطف صاحب تلك المستعمرة، والذي أعرفه أيضًا أن والدك من ضمن مؤسسي هذا المكان. تدهور بهم الحال عندما حدثت لهم أول عقبة استيراد قادمة من الخارج، فهم أوائل المستوردين للسجائر من الخارج، لكن كان ينقصهم شيء، وهو من الذي يستقبل تلك البضائع دون تفتيش، وينقصهم أيضًا شخص صاحب سلطة يؤمّن لهم الحاويات من القراصنة وهي قادمة من الخارج. في ذلك الوقت تعرفوا على رجل أجنبي داخل مصر يقدر على ذلك، يقوم بجلب السجائر لهم من الخارج ويؤمّنها حتى تصل أمام أعينهم، لكنه اشترط عليهم أن يحصل على نصف البضائع. والدك وصديقه وافقا على عرض الرجل، لكن في ذلك الوقت كانوا لا يملكون شيئًا، بل كان الجميع يطالبهم بالأموال التي أخذوها منهم. ضاق بهم الحال، وفارق كل منهما أسرته بسبب الأشخاص الذين يترددون على منازلهم. قرروا أن يذهبوا بعيدًا، وكل شخص فيهم يبحث عن أصدقاء وأناس آخرين يعطونهم أموالًا تكفي لجلب حاوية كاملة من السجائر الممنوعة. بالفعل فعلوا ذلك، وبعد جمع الأموال اتفقوا مع هذا الرجل لجلب الصفقة. بعد شهر من الاتفاق وصلت البضاعة أمام أعينهم، كان شيئًا صعب الحدوث لكنه حدث، وفعل الرجل بكلمته، وتبقى على والدك وصديقه استكمال الاتفاق، وهو أن يعطوا ذلك الرجل حقه نصف الحاوية. أخذ الرجل نصيبه ثم غادر. تبقت لهم خطوة، وهي بيع تلك السجائر، ولكن في الخفاء دون علم الشرطة.

قبل صدور قرار قطع الإنترنت بعد السادسة مساءً كانوا يعرضون سجائرهم على الأشخاص عبر وسائل التواصل، لكن انكشف أمرهم وأصبحوا مكشوفين لدى الشرطة وانقطع الإنترنت. فاقترح عاطف على والدك أن يقوموا ببناء مستعمرة تحميهم من رجال الشرطة، مكان يستقبلون فيه زبائنهم الذين يريدون شراء السجائر دون تدخل الشرطة. وافق والدك على هذا الاقتراح، وقاموا بالاستيلاء على منطقة لا يعرفها أحد بعيدًا كل البعد عن نظر الجميع، ووضعوا فيها بضائعهم، وبدأت تتعرف عليهم الرجال المخلصون لتنضم إليهم في بناء ذلك المكان. وبعد فترة وجيزة تم بناء ذلك المكان الذي يسمونه الجراج، وأصبح من أكثر الأماكن بيعًا للسجائر الممنوعة في الخفاء دون علم الشرطة. كل الذين يأتون هنا يخافون من الشرطة ولا يمكنهم التبليغ عما يحصل هنا، وإذا علم أحد فلا يمكنه العثور على المكان، فمن الصعب الوصول إليه."

قاطعت عاصم في منتصف الحديث وأنا ملهوفة لمعرفة طريق والدي وقلت له:

- "حتى الآن أنا لا أعرف أين والدي."

- "بعد استقرار والدك وصديقه على ذلك المكان، فهم يأتون إلى هنا كل خميس فقط، فهذا يُعتبر مقر عملهم وليس مكانًا للمعيشة. يخرجون بعد نهاية كل مزاد من تلك المستعمرة ويعيشون حياتهم البسيطة العادية أمام الجميع، ثم يعودون مرة أخرى إلى هنا آخر الأسبوع. ولكن في يوم من الأيام لم يأتِ والدك واختفى دون أن يعلم أحد بذلك. استمر والدك في الخفاء لمدة طويلة، ولم يعرف عاطف طريقه ولا يعرف إلى أين رحل. بحث عنه في كل مكان وسأل الجميع عنه، لكن لا يوجد أثر له على وجه الأرض."

- "هل مات والدي صابر؟"

- "لا، هو حي. بعد البحث المكثف الذي فعله صديق والدك، وصل إلى مكانه."

- "أين هو؟"

نهضت من مطرحي بعد سماع كلمة عاصم، ارتجف خوفًا من سماع مكروه له، أعلم أنني لم أتحمل خبرًا محزنًا عنه بعد كل هذه المدة.

- "كما أنتِ يا نور، هو ليس هنا. لقد عثرت عليه الشرطة أثناء خروجه من منزله وقبل قدومه هنا، لقد تم الحكم عليه بالسجن بسبب تجارته في السجائر

الممنوعة، ولا يمكننا زيارته إلا كل شهر ساعة واحدة فقط!"

دائمًا تقف أمامي الحياة عندما أصل لخط النهاية. أسمع كلام عاصم وأنا ميؤوسة الحال، لا أعرف كيف أصل له حتى بعد أن عثرت عليه، لكن كانت كلمات عاصم بها بعض الأمل، يمكنني رؤيته ولو حتى ساعة كل شهر بعد ما انتهيت من أفكار عقلي قلت لعاصم:

- "كيف علمت بكل هذا؟"

نهض من مكانه وتحرك بعيدًا عني قليلًا وبدأ في الهمهمة، ثم عاد لي مرة أخرى وجلس على مقعده وقال:

- "لقد أخبرني بها صديق والدك عاطف الدراملي."

عدت إلى مقعدي وأنا متعجلة القول:

- "متى موعد زيارته التالية؟"

"الأسبوع القادم."

- "أعلمني بمكان الزيارة كي أذهب إليه."

- "لا يمكنك زيارته، لقد قمت بإرسال اسمي إلى الشرطة لأبلغهم أنني الزائر القادم له."

- "أرسل إليهم اسمي بدل اسمك."

- "لا يمكنني فعلها، لقد اقترب موعد الزيارة، إذا أردنا تغيير اسم الزائر يجب الإبلاغ قبلها بخمسة عشر يومًا، لقد فات الميعاد، وأيضًا لقد حبست نفسي هنا لمدة شهر كامل أعمل دون أجر مقابل أن يوافق صاحب المزاد أن يضع اسمي لمقابلة والدك."

- "لهذا السبب أنت اختفيت فجأة."

مسح بيديه على وجهه ثم أبعدها وهو يخرج هواءً من فمه معلنًا عن سبب ما وضعه هنا:

- "كانت تبحث عني الشرطة بسبب تلك الصفقة التي عقدتها مع درويش، كان يجب عليّ الاختفاء في مكان غير معلوم، وتورطت في هذا المكان صدفة بسبب

صديق لي، لكنها صدفة غريبة التي ذهبت بي إلى مستعمرة والدك، ثم انتظرت هنا من أجل البحث عن والدك كما طلبتِ مني."

تقترب يداه من يدي بعد ما أنهى عبارته، تنسحب يداه مثل الثعابين لتنقضّ على فريستها. يدي كانت فريسة سهلة له كي يقبض عليها. وضع عاصم يديه على يدي وهو يقول:

- "كنت أرسل لكِ بعض الرسائل لأعلمك بشيء لا يمكنني قوله في العلن، ترتعش يدي ويثقل لساني عند رؤية عينيكِ التي تشبه سلاح الكلاشنكوف."

- "هل أنت صاحب تلك الرسائل غير المفهومة؟"

- "لا تقولي لي أنكِ لم تفهمي معنى 520!"

- "لم أفهم ماذا يعني هذا الرقم يا عاصم، هل هو رمز لحساب بنكي؟"

كانت كلماتي كفيلة أن تفسد اللحظات المشتعلة بيننا. نهض عاصم من مطرحي وترك يدي التي اقتربت على الاشتباك. شعرت بالغباء وقتها لأنني لم أفهم قصده من تلك الرسالة.

- "هذا الرقم يعني الكثير مما أخفيه نحوك، لكن لم أقدر على قول معناه أمام عينيكِ."

قالها عاصم وهو مذعور من غبائي الذي يفضحني دائمًا. حاولت أن أحتوي تلك الأفكار المبعثرة في المكان وأملأ عقلي بالقول:

- "أريد معرفة معناه الآن، سوف أغمض عيني وأسمعك بوضوح."

عادت يداه تقتربان من يدي ثانيًا، ثم أغلقت عيني حتى يفصح عن كلماته التي أريد سماعها بحماس. أنا الآن أسمع لسانه يتلجلج في نطق حروف معينة.

"520 تعني.. تعني"

لم يقدر على قولها مرة واحدة، لكن لسوء حظي الذي أعرفه جيدًا لم ينطقها من الأساس.

- "520 تعني.. تعني أنني أحـ.."

- "هيا يا نور.. سوف ترحل آخر حافلة تنقلك خارج المستعمرة، ويجب عليكِ

العودة معها."

قال تلك الجملة صاحب المزاد الذي دخل علينا فجأة وفسد كل شيء، مثلما فعلك أنا منذ قليل. نهض عاصم سريعًا من مطرحي قبل أن يلاحظه أحد وقال في لهفة:

- "يجب أن ترحلي الآن، وأنا سوف أقابلك بعد أسبوع، بعد التخلص من العمل هنا ومقابلة والدك."

كان كل شيء سريعًا. خرجت من المستعمرة سريعًا ولم أجلس مع عاطف صديق والدي، كان منشغلًا بعمله في المستعمرة أكثر من اللازم. صعدت الحافلة وعدت من حيث أتيت.

عدت إلى غرفتي على أكتافي هموم ثقيلة لا يمكنني حملها وحدي. تعودت دائمًا أن أخرج من غرفتي فارغة الهموم وأعود محملة بها لتحملها عني أمي، فهي مثل المغناطيس تنتشل مني كل ما هو فاسد. جلست على سريري أراها تنغمس في نومها، لا أريد أن تفيق، ستسأل أين كنت؟! اقتربت من فراشي أكثر، وقبل أن أغمض عيني سمعت صوتها:

- "أين تذهبين كل ليلة دون علمي؟"

- "أقوم ببعض الأشغال لتزويد دخلي."

لا أعلم كيف جئت بتلك الفكرة، خطرت على بالي وأنا أنظر لها.

- "أين دخلكِ الأساسي؟ أنا لا أراه؟!"

دائمًا تطرح عليّ الأسئلة، يصعب عليّ إجابتها. كانت ستكون محققة بارعة لو كانت التحقت بالشرطة المصرية، ستمسك أي قاتل من أول جريمة.

- "تركت عملي للتفرغ لفعل مهام أخرى."

- "تركتِ عملك من أجل البحث خلف والدك الهارب، سوف يطيح بمستقبلك، ولم تعثري عليه."

- "والدي لم يهرب يا أمي!"

اعتدلت في موضعها ثم قالت بصوت خافت:

- "هل تقدرين على أن تقولي لي أين هو؟ ولماذا لم يأتِ إلينا حتى هذا الوقت؟"

- "أكيد يعوقه شيء يمنعه عن رؤيتنا."

- "لا أعلم لماذا تدافعين عنه هكذا، فهو هارب، هذا زوجي وأنا أعرفه، لم يتحمل مسؤوليتنا."

- "أدافع عنه لأنني أعلم بالحقيقة."

- "والحقيقة هي أنه هارب."

- "ليس هاربًا، إنه مسجون!"

انفجرت الدموع وأنا أتفوه بكلماتي بصوت عالٍ، كادت تسمعني الجيران بسبب صوتي.

- "ماذا تقولين!"

- "هذه الحقيقة، اليوم علمت بتلك المعلومة، وعرفت أنه مسجون بسبب تلك السجائر التي يتاجر فيها."

- "يحفر وراء خياراته الخاطئة، اعتاد على ملازمة أصدقائه وتركنا بدون رجل."

- "كان يعمل ليلًا ونهارًا ليعود إلينا مرفوع الرأس."

- "لم يعد إلينا يا نور، هذه الحقيقة التي تحاولين إخفاءها."

قالت أمي عبارتها وهي ترتجف، تشتعل من الداخل بالخوف لكنها لا تريد إظهار هذا لي.

- "والدي ليس بهذا السوء يا أمي، سوف يخرج من محنته ويأتي هنا لجمع شملنا مرة أخرى، ومن الآن وحتى هذا اليوم يجب علينا الانتظار."

- "سوف تنتظرين بمفردك، فأنا اعتدت على العيش بدونه."

عادت أمي إلى فراشها مرة أخرى، والتفتت للحائط لتقابلني بظهرها، وبعد دقائق معدودة سمعت بعض الأنين المكتوم صادرًا منها.

- "لماذا تبكين يا فاتن؟"

لم تجبني، لقد سيطر الصمت على الغرفة حتى أغمضت عيني ورحلت بعيدًا

عن دوشة الحياة التي أتصارع معها كل يوم.

ظلام يحاوطني في كل مكان، جالسة في مكان لا يوجد به ملامح، لا توجد تفاصيل، الذي أعلمه الآن أنني في ظلام، وجسدي ممدود، وتوضع يداي جانبي، أشعر بحركة ماا!! هذا المكان الذي أجلس فيه أنه يتحرك، يبدو أنني في صندوق ضيق الحجم، مربوطة جيدًا ولا يمكنني الفرار. بعد وقت قصير علمت أنني ممددة في تابوت الذي ينقلني إلى العالم الآخر، عالم الأموات، هنا لا يمكنك الفرار ولا يمكنك الكذب.

لقد توقفت الحركة، من الظاهر أنني وصلت إلى منزلي الثاني الذي أجلس فيه حتى تقوم الساعة.

أسمع أصوات الحفر ممزوجة مع أصوات البكاء، فكلٌ منها يربكني ويجعلني أتألم. انتهى الحفر وتبقى نزولي للأسفل، أزيل غطاء التابوت وانكشف الكفن، وبدأ الرجال برفع جسدي ثم النزول بي إلى الأسفل. أسمع بعض الكلمات والهمس المنخفض، لكن لا يمكنني ترجمة تلك الجمل. بعد أن وضعوني في مكاني المخصص، غادر الجميع ليقوموا بغلق المدفن عليّ مرة أخرى.

أنا الآن أنتظر شيئًا لا أعرفه، أنتظر الاعتراف والسؤال الذي كنت أحفظه منذ قدومي إلى تلك الحياة، لكن الإجابة لا تعتمد على حفظها، فهي تعتمد على الأعمال التي قمت بها في الحياة التي خضتها منذ ولادتي. إذا قمت بعمل صالح سوف أجيب دون قلق، وإذا ضاع عمري دون عمل شيء تحسبًا لهذا اليوم فأنا أصبحت من النساء المذكورات بوقود النار!

أسمع صوت قبض، صوت قادم من بوابة المدفن، عدد رهيب من الخبط المستمر. لم أتحمل ذلك الخبط، فهو يزداد يزداد، ومعه تزداد حركتي. أحاول فك كفني لكن لا يمكنني الهروب، لكن ذلك الخبط ليس قادمًا من باب المدفن، إنه قادم من باب غرفتي!!

استيقظت من كابوسي بصعوبة في التنفس، إنه اليوم السابع في تكرار نفس الكابوس. ينزل العرق من على وجهي بشدة، أصبح فراشي مبللًا مثل فراش الصغار، لكن ما زال الخبط مستمرًا. هل أنا ما زلت في المدفن؟ هل أنا جثة؟

كان الخبط يأتي من باب الغرفة الذي اقترب على الانهيار. اتجهت نحو الباب

وأنا أقول في عقلي: هل هذه مواعيد للزيارة؟

قمت بفتح الباب لأرى أمامي نادي يبتسم، ويرفع يديه ببعض الأكياس البلاستيكية، ويوجد بداخلها، لا أعلم ما يوجد بداخلها.

"ما الذي تفعله هنا!!"

انخفض معدل السعادة عند نادي عندما قمت باستقباله بهذا الشكل، خفض يديه وقال:

"هل تستقبلين الضيوف يوميًا بهذا الشكل؟"

"ضيوف!"

"نعم، فأنا ضيف، يمكنني الدخول ولا ممنوع يا أيتها المحققة."

"لا تنطق هذه الكلمة مرة ثانية، اذهب للغرفة المقبلة وسوف أتابعك."

تعجب نادي من كلماتي، التفت للغرفة التي تجلس فيها الجثة، ثم تابعته بعدما نظرت لوجهي في المرآة وأغلقت الباب خلفي، وقبل الدخول له قلت:

"ما هي الأخبار يا نادي؟!"

أراه يجلس أرضًا ويفرش أمامه بعض الأوراق، وتفوح رائحة طعام شهية.

"قبل الحديث عن الجثة وأخبارها، اجلسي نأكل أولًا."

تخشبت قليلًا، فأنا لا يمكنني المقاومة فيما طلبه نادي مني. أنا لم أتذكر آخر مرة قمت فيها بأكل الطعام. جلست أمامه وأنا ألتهم الأكل مثل المحرومين منه منذ شهور. أصابع الكفتة الساخنة، وأكواب الطحينة، والسلطة، لا يمكنني الصمود أمام كل هذا، كثير. اقتربت منه وأنا أتربع في الجلوس وبدأت في نهش الطعام.

"هل تنظرين لنفسك في المرآة عند النهوض من النوم؟"

"أعلم أنني أشبه الغوريلا في الصباح، لا تنظر لي."

"بالعكس، تشبهين الأميرة سندريلا."

توقف الطعام في حلقي بعد سماع جملة نادي، لم أسمع منه مثل هذه الكلمات من قبل. ماذا يقصد بالأميرة سندريلا؟ فأنا أكره رؤية وجهي كل يوم، هل

يقصد؟!

"مجاملة ليست في محلها، لماذا لم تأكل؟"

حاولت الخروج من كلماته الممزوجة بالتسبيل غير المربح، لكن ما زال نادي يطلق كلماته التي تثير اشمئزازي.

"الطعام ليس له طعم دون النظر إليك."

"نادي، هل أنتَ في وعيك؟"

"نعم، في أحسن حال."

"توقف عما تتفوه به وكُل لي.. هل ظهرت النتائج؟!"

قام نادي من أمامي واحمر وجهه، أعلم أن الخجل يجري في أرجاء جسده بسبب ما قلته الآن. ذهب نحو الجثة ليتفقدها.

"لقد ظهرت النتائج! ماذا تتوقعي تكون النتيجة؟!"

توقف الطعام في حلقي مرة ثانية. من المؤكد ستقول النتيجة من هي الجثة التي نبحث عنها كل هذه الفترة، وسنقترب أيضًا من الفاعل بها. تركت الطعام وقمت من مطرحي وذهبت ناحية نادي.

"النتائج معك ولم تخبرني بها حتى الآن!"

"نعم، هي معي، ولذلك جئت."

"وما هي؟"

تمكن التوتر من جسدي، أنتظر الإجابة، ويدور في عقلي مائة سيناريو للحاج حامد. إذا أصبحت النتيجة إيجابية سيكون هو القاتل للجثة، ومن المؤكد تكون هذه الجثة تخص شقيقته. ظل نادي صامتًا ولم يتكلم، ينظر للجثة ويقول:

"أصبحنا ضائعين وتعقدت الأمور أكثر."

"لماذا تقول هكذا؟ ما هي النتائج؟"

"النتائج تنفي التشابه بين الجثث."

"وضح لي أكثر."

@ART_OF_BOOK

"الأسنان التي قمتِ بجلبها لي.. الحمض النووي الخاص بها لا يتشابه مع الحمض النووي الخاص بأسنان تلك الجثة التي نبحث خلفها".

كلام نادي صحيح، أصبحنا ضائعين وتعقدت الأمور أكثر في تلك الحالة الجثة لا تخص شقيقة الحاج حامد الضائعة. أما لمن تخص هذه الجثة؟ ظهر على وجهي اليأس، أخرجت عبارتي وأنا معبأة بالحزن وخيبة الأمل:

"ما الخطوة القادمة؟!"

"نفحص الجثة مجددًا، تعلمين أن صديقي (عارف) محق في كلامه!"

"ماذا تقصد بـ محق في كلامه؟"

"عند فحص الأسنان، أظهرت النتائج أن الجثة عمرها يتراوح بين الخمسين والخمسة والخمسين عامًا."

"وما نوعها؟"

"يجب تفحص الحوض جيدًا وجمجمة الرأس."

تعجبت من كلمات نادي ووضعت يدي على جمجمة الجثة قائلة:

"ماذا يربط الجمجمة بنوع الجثة؟!"

نظر لي مبتسمًا ثم بدأ الشرح:

"تميل جماجم الذكور أن تكون أكبر من جماجم الإناث وتمتلك حواف متبارزة أكثر."

سمعت كلام نادي ثم التقطت بواقي الطعام وغادرت الغرفة لعمل شيء أشربه.

"هل تحب شرب الشاي؟!"

"ومن لا يحبه".

غادرت الغرفة لتحضير بعض من الشاي، وبعد الانتهاء عدت مرة أخرى لأقدمه لنادي.

"شكرًا."

@ART_OF_BOOK

"هل وصلت لتقدم جديد؟!"

أخذ نادي رشفة من كوب الشاي وقال:

"لا، لكن أشعر بأن الجثة أنثى."

"لماذا تقول هكذا؟"

"حوض الجثة عريض وقصير، والعجز مدفوع للخلف زيادة عن عجز جثث الذكر."

"أنا لم أفهم شيئًا، لكن فضولي يدفعني للسؤال عن ما هو العجز؟!"

أشار نادي بأصبعه على قطعة عظام:

"ها هو العجز، جزء من العمود الفقري يوجد أسفل الظهر."

أخذت رشفة من كوب الشاي وحاولت التظاهر بأنني أفهم كل ما قاله نادي، لكن في الواقع أنا لم أفهم شيئًا. تابع نادي كلامه:

"نحن نمتلك الآن أكثر من معلومة للجثة، فهي أنثى، عمرها فوق الخمسين عامًا، سبب الموت من المؤكد إصابة في الرأس، الحمض النووي لم يتطابق، يتبقى لنا معرفة القاتل فقط!!"

"أهم نقطة نفتقدها."

"لكن سنصل لها طالما أنا معك!"

حاول نادي أن يقرب يديه من يدي، لكن أبعدت يدي بقول:

"تعلم أنني رأيت عاصم منذ قريب."

غضب نادي مما سمعه وترك كوب الشاي جانبًا وقال بثقل في لسانه:

"جيد.. أين هو؟"

"سوف يظهر بعد يومين أو أقل."

"أتمنى ذلك."

غادر الغرفة، غاضبًا من عودة عاصم. كان غيابه بالنسبة له يفرحه، عكسي

تمامًا، قلت له:

- "سترحل دون تكملة الشاي."

لم يستجب لكلماتي. لا أعلم أنها ستكون ثقيلة على قلبه هكذا. من الممكن أن يمتنع عن مساعدتي لاحقًا. لم أقصد مضايقته، لكن نادي تجرأ أكثر من اللازم في كلماته وتعبيره المبالغ فيه، ولا أعلم سبب تغيره تجاهي بهذا الشكل. غادرت الغرفة خلفه لأتابع خطواته. اقتربت من السور ونظرت إليه من الأعلى، رأيته وهو يخطو خطوات سريعة دون اتزان حتى اصطدم بالحاج حامد صاحب العقار.

أما الحاج حامد، ما حاله؟!! لقد نقص وزنه بشكل ملحوظ، وتساقط شعره الكثيف، وأصبح يتكلم مع نفسه بكثرة. رأيته يقف أمام الحائط ويرفع يديه ويقول بعض الكلمات غير المفهومة. ينظر له الأشخاص في الشارع ويضحكون على أفعاله. استمر في الوقوف أمام الحائط لفترة حتى أتت زوجته وقامت بإنهاء أفعاله وذهبت به إلى المنزل.

أشفق عليه، واتهمته بتهمة قتل شقيقته أيضًا. بعد النظر طويلًا أسفل العقار، شعرت بثقل في الرأس، عاد الوجع المؤذي مرة ثانية، لكن هذه المرة أصبح خطيرًا. لقد انقلب حالي من النور إلى العتمة، لم أرَ أمامي إلا طشاشًا بسيطًا. أسمع صوت أمي بالداخل تنادي بصوت عالٍ، لكن أنا لم أرها تقف على باب الغرفة ولا يمكنني رؤيتها. أغمضت عيني عدة مرات كي تعود الرؤية، عادت بعد معاناة.

كل يوم يزداد المرض وأنا أهمل في نفسي وفي استمرارية العلاج. يجب عليّ الذهاب للطبيب، لقد عادت نوبات الصداع ولم أشفَ منها.

***

الانتظار شيء مميت بالنسبة لي، أجلس على مقعدي أنتظر دوري. لو كنتَ مقبلًا على الموت قريبًا يجب عليك الانتظار أيضًا، وإذا كنت تعاني من شيء يفجر رأسك مثلي يجب عليك الانتظار أيضًا، وسط أشخاص تعشق الثرثرة مثل مساعدة الطبيب هذه التي تنظر لي وتبتسم مثل الأفاعي. لا أعلم هل الأفاعي تبتسم أم تضحك مثلنا أم لا، لكن أشعر أنها من فصيلتهم، خبيثة.

"أنا التي قمتُ بمساعدتك آخر مرة."

قالتها وهي تنظر بابتسامة تعني الإجبار على دفع إكرامية لها، لكن أنا أريد من

@ART_OF_BOOK

يدفع لي إكرامية حتى أتابع مع ذلك الطبيب. نظرت لها بنفس الابتسامة الخبيثة وأنا أقول لها:

"متى يأتي دوري أيتها السمينة؟"

تلك الجملة كنت أريد قولها، لكن كان صوتي منخفضًا لا يمكنها معرفة ما قلته. لو علمت بما قلته ستأتي راكضة نحوي وتجعل مني صورة تذكارية على الحائط للترحم عليها.

"ماذا تقولين يا آنسة نور؟"

"متى يأتي دوري يا عروسة؟!"

"كيف علمتِ بذلك؟ أنا سأصبح امرأة متزوجة بعد شهر من الآن."

لم أتقدم خطوة واحدة مهما عملتِ لدفع إكرامية لكِ، فأنا حاصلة على جائزة في البرود الخام.

"ألف مبروك، أتمنى حياة سعيدة لكِ."

"من الممكن أن تأتي المرة القادمة ولن تجديني، سأكون بجانب زوجي."

"أتمنى ذلك."

"نعم."

"أتمنى أن تكوني سعيدة بجواره."

أعلم أنني لم أنتهِ من ذلك الحوار الممل، قمت من مطرحي ذاهبة لاستنشاق بعض الهواء في الخارج. توجد بالداخل مجموعة من النساء التي تجلب لي وجع الرأس دون مرض، هن وأطفالهن طوال القامة البالغين دون سن بلوغ. تلك الفئة العمرية منهم مزعجة، قادرة على تطفيش كل ما هو جميل من مطرحه. ابتعدت عن ثرثرة النساء كي أصطدم بثرثرة الرجال بالخارج.

أسمع صوت رجل يخرج رأسه من نافذة سيارته يتشاجر مع رجل آخر يقف أمام سيارته ولا يريد أن يتحرك، يقف في منتصف الطريق ولا يهمه شيء. ازدحمت السيارات من حوله، أصبح سوقًا لبيع السيارات وليس طريقًا. يبدو على الرجل الواقف أمام السيارات وكأنه ثمل شارد الذهن، لكنه لم يشبه قطاع الطرق،

فهو مهندم في ملابسه، رجل كبير في العمر. أنا أعرف ذلك الرجل.

خرج صاحب السيارة من سيارته ليدفعه بعيدًا، ركضت نحوه سريعًا قبل حدوث اشتباك بينهما، سحبته من منتصف الطريق ووقفنا بعيدًا عن الازدحام. هذا الحاج حامد، فهو لم يدرك أفعاله بسبب كثرة شربه للخمر كل يوم.

"أين تذهب وسأقوم أنا بتوصيلك!"

"من أنتِ؟!"

حتى أنا لا يمكنك التعرف عليّ، يبدو أنه يشرب حتى نفدت أمواله وهرب عقله.

"أنا نور التي استأجرت الغرفة منك."

لم ينظر لي، بل كان يتكلم مع شخص آخر وهمي في خياله. اقترب منه ومد يديه له وقال:

"نوال، أين أنتِ؟ أبحث عنك، أشتاق لحضنك."

كان يقول عبارته وهو يبكي، يتخيل شقيقته تقف بجانبي ويمد يديه لها عسى أن يلمسها. يعاني من مرض ما، تدهور الحال به لهذه الدرجة. أدعو من الله أنه لا يطيل في عمري لأصل إلى هذه الحالة.

"لا يوجد شخص بجانبي، يجب عليك الرجوع للمنزل."

"نعم، أنا أريد المنزل."

حاول قولها عدة مرات حتى خرجت من فمه. أوقفت سيارة أجرة، خرج منها سائق بشوش قائلًا:

"كل يوم يا حاج حامد أراك بتلك الحالة."

"هل أنت تعرفه؟!"

"نعم، وأعرف طريق منزله أيضًا. اركبي حتى أوصلكم إلى هناك."

كان يجب عليّ الدخول للطبيب، لكن! ركبت معهم كي أوصله إلى منزله ثم أعود مرة أخرى. أثناء الطريق أرى سائق الأجرة يدخل شوارع لم تسلكنا إلى طريق المنزل الخاص بالحاج حامد.

- "هذا ليس طريق منزله."

- "كيف، وأنا أقوم بتوصيله كل يوم من هذا الطريق."

- "هل هذا طريق مختصر أم.."

لم أكمل عبارتي وقاطعني السائق بعبارة:

- "لقد وصلنا، هيا."

توقف أمام منزل داخل حارة شعبية ضيقة، منزل قديم مكوّن من طابق واحد.

"هل أنت متأكد من هذا العنوان؟!"

"نعم هذا منزله. ابحثي في جيبه عن مفاتيح المنزل واذهبي لفتحه، وأنا سوف أحمله على أكتافي ليدخل."

بحثت في جميع ملابسه حتى عثرت على مفتاح صغير الحجم. أخرجته من جيبه وذهبت نحو الباب الخشبي للمنزل وقمت بفتحه، ولقد فُتح الباب..

حتى الآن لم أصدق أنه منزله. أخرج سائق الأجرة الحاج حامد وهو يسنده ثم دلف إلى المنزل ووضعه على أريكة قديمة. هبط جسد الحاج حامد وبدأ بفعل أصوات مزعجة. وضعت يدي في جيبي للبحث عن مال لدفع حق السائق، لكن نظر لي سائق الأجرة وقال:

"لم تعودي معي؟"

"لا، فأنا مثل ابنته، لا تقلق. أجلس معه حتى يفيق. كم تريد؟"

"لا يمكنني الحصول على المال، الحاج حامد مثل صديقي. عندما يفيق قولي له: الحاج عرفة."

غادر الحاج عرفة دون الحصول على حق أجرته، أغلق الباب خلفه، وعمّ الصمت في المنزل إلا صوت أنفاس الحاج حامد. أصبحت الآن داخل منزله الثاني، هذا المنزل الذي يأتي إليه متخفيًا. ها هو المنزل الذي قال عليه ربيع!! ربيع يجب أن أدعو له، فهو الآن يسأل. ذلك المنزل يأتي إليه بمفرده ويجلس بالساعات داخله، ماذا يفعل في منزل ضيق مثل هذا؟!

منزل به غرفة واحدة تعيسة، يوجد بداخلها سرير صغير مصنوع من الحديد

وخزانة ثياب خشبية قديمة. صالة المنزل لا يوجد بها الكثير، إلا أريكة صغيرة متهالكة، خشبها مضى فترته الافتراضية. يظهر بلاط الأرض ليقول إن هذا المنزل لم يذق طعم التجديد منذ سنين. حمام صغير يتميز بالحائط المقشر الذي يتساقط عليك أثناء قضاء حاجتك. تبقى المطبخ العتيق، تخرج منه رائحة عفونة تعبر عن مدى صحة الطعام الموجود داخله. لم أطق الوقوف في ذلك المطبخ طويلًا، وقبل الخروج سمعت صوت هبة قوية تأتي من الخارج.

ركضت سريعًا لتفقد الصوت، رأيت الحاج حامد سقط من على الأريكة واصطدمت رأسه بسن البلاط البارز، وخرجت الدماء بغزارة تبحث عن مكان تصرفها..

في تلك اللحظة انقبض قلبي، أقف وأنا أشاهد تلك المصيبة التي ستذهب بي جانب والدي. هل هو مات؟! هل هو حي؟! هل يجب عليّ الركض بعيدًا قبل تورطي في جريمة لم أفعلها؟! في تلك اللحظة، وقبل الإجابة على أي سؤال من تلك الأسئلة، سمعت صوت الباب، يوجد شخص ما خلف الباب يطرق عليه ويقول:

"افتح يا حامد، أنا سعيد، لقد رأيتك منذ قليل وأنت تدخل إلى المنزل".

لقد تورطت وأصبحت من المجرمين ولا يمكنني الفرار. قبل فتح الباب رفعت جسد الحاج حامد بصوت منخفض، أعلم أن جسده ثقيل، لكن يجب عليّ أن أتحمل. دخلت به غرفته، وضعته على السرير، ثم اتجهت إلى الدولاب، بحثت عن قطعة ملابس بيضاء لوضعها على رأسه تشبه القطن. وقبل ربطها على رأسه، ذهبت للمطبخ سريعًا على أمل أن أجد حبة من البن المطحون، ولحسن حظي وجدته

قمت بوضع حبة على مكان الجرح ووضعت عليها قطعة الملابس وربطتها جيدًا، ثم ذهبت لمسح آثار الدماء الموجودة على الأرض. وضعت القماشة بعيدًا عن النظر، وقمت بضبط ملابسي ومسح عرقي، ووقفت أمام باب المنزل قائلة:

"من الطارق؟"

"أنا سعيد صاحب الحاج حامد، جئت لجلب ما طلبه مني."

سحبت نفسًا عميقًا ثم وضعت يدي على مقبض الباب وسحبته برفق، ليظهر

رجل قصير القامة نحيف، لديه شارب أبيض صغير ويرتدي قبعة سوداء ويحمل في يده اليسرى أدوات حفر.. نظرت له وعلى وجهي ابتسامة مصطنعة:

"الحاج حامد مريض الآن، يمكنك المجيء وقت لاحق."

كنت أظن أنه سوف يلتفت ويأتي في وقت لاحق، لكن ما فعله ذلك القصير عكس ذلك. قام بدفع يدي الموضوعة أمامه ودلف مسرعًا وهو يقول:

"يجب أن أطمئن عليه، فهو مثل شقيقي."

دخل غرفته وجلس بجانبه وهو يضع يديه على قدمه:

"ألف سلامة عليك يا حاج حامد، كنت أتمنى أكون أنا ولا تتحملها أنت يا صديقي."

أغلقت الباب وذهبت خلفه لأجلس معه، وأنا القلق ينتشر في أنحاء جسدي. حاولت تأليف بعض السيناريوهات قبل طرح أي سؤال علي.

"كان يجلس بجواري سليم ويضحك، ذهب لجلب شيء من السوبر ماركت، اصطدم بسيارة ووقع على رأسه."

"هل هي تلك سيارة الأجرة التي غادرت منذ قليل؟"

"نعم هي.. نعم هي!! تشرب شاي؟!"

"لا أريد مضايقتك."

"لا، أنا سوف أحضره سريعًا."

كنت أذهب بعيدًا عنه لإخفاء توتري المستمر أمامه، أخاف أن يسألني عن شيء أنا لم أعرف إجابته.

"لكن أنا لم أركِ هنا من قبل!! من أنتِ؟!"

قالها الرجل لي بصوت عالٍ بعدما دخلت لأحضر بعض الشاي.

"أنا ابنة شقيقته."

لم يرد على إجابتي، قلقت أن يفعل شيئًا دون علمي. نظرت بطرف عيني من مدخل المطبخ لأراقب ما يفعله، رأيته يقف أمامي مثل العفاريت ويقول:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"هل أنتِ ابنة نوال أم خيرية؟!!"

"أنت تعرفهم جميعًا."

"نعم، نجلس أنا والحاج حامد كل يوم نتكلم عن عائلته التي تضحك عليه في توزيع أمواله."

- "لكن لم يضحك عليه أحد، تُقسم الأرباح كل شهر كما يفعلون من قبل."

- "لا، قال لي الحاج حامد شقيقته (خيرية) تسرق القسمة لصالحها.. هل هذه والدتك؟!"

نظرت في عينيه متخشبة الحركة، لم أجد إجابة صريحة. قلت له بصوت متردد:

- "لا، أمي هي الست نوال."

- "جلست معها أيضًا، ست كريمة تحب الخير لغيرها. هل أنتِ فاطمة أم سناء؟!"

كل مدى تضيق حلقة الأسئلة المريبة التي تصيبني بالخوف. لم ترتعش يدي مثل هذه المرة. لم يعرف الخوف طريقي، لكنه تعرف عليه الآن بسبب ذلك الرجل الخبيث. أخاف أن يعلم من أنا ويستدرجني حتى أقع بلساني. تابع الحاج سعيد حديثه:

- "أنا أخمّن أنكِ فاطمة الهادئة التي تتميز بالجمال والشعر الأسود الناعم كما وصفتك أمك."

أخرجت أنفاسًا محبوسة غير قادرة على الخروج ثم قلت له:

- "نعم، أنا فاطمة الهادئة.. ماذا قالت أمي عني؟!"

- "قالت إنكِ خجولة دائمًا، لكن أنا أرى عكس ذلك."

- "تقصد أنني؟"

قاطعني الحاج سعيد وقال:

- "لم أقصد شيئًا، لكن أنتِ جميلة. لم أرَ في يديك خاتمًا يعبر عن وجود رجل

في حياتك، آخر شيء أعلمه أنكِ متزوجة."

سقط من يدي كوب فارغ عند سماع سؤاله.

- "على مهلك، سوف أهتم بها أنا."

انحنى الحاج سعيد على قطع الزجاج المبعثرة في أنحاء أرض المطبخ. أريد الآن أن أنزل على رأسه بكل قوتي للتخلص منه. رفعت الكوب الآخر للأعلى، وقبل أن أنزل عليه عاد مرة أخرى إلى موضعه وقال:

"ما تلك البقعة الحمراء الموجودة على حذائك؟"

كاد أن يكشف أمري، لكن استحضرت إجابة سريعة قبل الوقوع في أمر خاطئ.

"نعم هذه بسبب النزيف الذي حصل للحاج حامد."

"يبدو أنه نزف كثيرًا، اخرجي من المطبخ. أنا لا أريد شرب شاي، هيا نرجع للغرفة."

وضع بواقي الزجاج في سلة موضوعة بالزاوية، وخرجنا نجلس بجانب الحاج حامد. وقبل أن يجلس جانبه رفع حقيبة من نوع القماش وقال:

"هذه العُدّة طلبها مني للعمل بها، عند الاستيقاظ أبلغيه أنني جلبتها له، وأبلغيه سلامي له. يجب عليّ أن أغادر."

قلت له وأنا أريد مغادرته:

"لم تنتظر حتى يفيق؟"

"لا، أنا لا أطيق الجلوس في ذلك المنزل، يذكرني بزوجتي الله يرحمها. ذلك المنزل كان منزلي قبل شرائه الحاج حامد، منزل بسعة غرفتين. ماذا أفعل به وحدي دون أطفال؟ أنا الآن أجلس في غرفة صغيرة تبعد شارعًا واحدًا من هنا. إذا أراد حامد شيئًا، قولي له يتصل بي."

لم أنتظر كثيرًا حتى فتحت له الباب وخرج. أغلقت خلفه وسندت بظهري على باب المنزل. استنشقت الهواء بسرعة رهيبة وكأنني كنت في قاع المحيط وعثرت على أسطوانة أكسجين.

ظللت واقفة خلف الباب أشعر بأنفاسي تتسارع، وبعد وقت من الانتظار عدت

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

إلى أدراجي وعاد الاتزان مرة أخرى. ذهبت لتفقد أنفاس الحاج حامد، أنا حتى الآن لم أعرف هل هو حي أم فارق الحياة؟!

تسللت إلى الغرفة التي يمكث فيها، واقتربت من موضع جسده الممدود، وخفضت رأسي ببطء ووضعت أصابعي أسفل أنفه، فشعرت بنسمة هواء ساخنة تؤكد لي أنه ما زال حيًا..

تراجعتُ للوراء قليلًا وأنا عيناي متعلقتان بحقيبة الحاج سعيد، ما الذي يفعله حامد بهذه الأدوات؟! يبدو أنه سيحفر مكانًا ما لإخراج شيء من باطن الأرض.

دائمًا تسحبني أفكاري لأشياء لا تمتّ للواقع بشيء، لكن أحيانًا تكون تلك الأفكار سببًا في اكتشاف سر من أسرار مدفونة أسفل الأقدام منذ قرون مضت. هل الأفكار التي أتت منذ قليل في رأسي عن الحاج حامد صحيحة أم هي أكذوبة عابرة خلف أصحابها؟ في رأيي هي ليست أكذوبة، أشعر وكأنها حقيقة ويجب الأخذ بها، لكن ما يدفعني للوراء هو الخوف والشعور بالرعب من أماكن مثل منزل حامد الذي يبلغني أنه منزل أشباح صغير.

تعلم، عزيزي القارئ، ما هي تلك الأفكار؟! أشعر بجثمان الست (خيرية) يحوم حولي، ليس الجسد، بل الروح التي فارقت الحياة منذ تاريخ اختفائها. ينتابني شعور بأن الحاج حامد يأتي إلى هنا كل يوم يبكي على ما فعله فيها، ثم يرجع لصوابه ويغلق المنزل ويغادر. ينتابني شعور أيضًا بأن ضميره عاد إليه وطلب عُدّة الحفر لإخراج جسد شقيقته ويعلن للجميع أنه القاتل، لكن يتبقى البحث عن مكان الجسد وأين وضعه حامد في هذا المنزل الصغير؟!

البحث عن مكان دُفن فيه شخص من الصعب إيجاده، وبالذات إذا كان المكان منزلًا آيلًا للسقوط. بحثت في جميع زوايا المنزل، لم أعثر على إثبات صغير يقول لي إن الجثة نائمة هنا، لا توجد علامات في أرضية الغرفة، ولا توجد علامات في حائط المطبخ الذي تخرج منه رائحة تقول إن الجثة تنام هنا منذ فترة!

توقفت في صالة المنزل أبحث بأطراف عيني عن شيء غير مألوف، غير واقعي، لكن لا يوجد. دخلت الغرفة مرة ثانية وفتحت خزانة الثياب، أخرجت كل ما فيها للبحث عن شيء يدين الحاج حامد، لكن جميعها تحتوي على ملابس رجال قديمة، وبينهم وجدت بينهم شالًا أسود به بعض الفراغات، ماذا تفعل ملابس النساء في خزانة رجل يعيش بمفرده هنا؟

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

فردت الشال ووجدت بداخله بعض الأوراق لعقود قديمة للتنازل عن محلات المصوغات الخاصة بهم، كان المالك (عبد الحميد أنور) ويتنازل عن أملاكه لامرأة اسمها (خيرية عبد الحميد أنور)، ويوجد أيضًا بطاقات تحقيق شخصية تخص الست خيرية، وبعض الأختام القديمة، وبعض من المجوهرات..

كل تلك الأشياء كانت بداخل الشال الأسود القديم الذي تفوح منه رائحة تراب كريهة. نظرت لتلك العقود مرة أخرى وأدركت منها أن الست خيرية هي المالكة والوارثة الوحيدة لمحلات المصوغات التي يتقاسم أموالها الحاج حامد. هل كانت تعلم أم أخفى عنها الحقيقة وتخلص منها قبل الوصول إلى تلك الأوراق؟ كل ما هو في حوزتي الآن يشير بأن حامد قام بقتل شقيقته، لكن كيف وأين فعل ذلك وأين أخفى الجثة؟

أخرجت كل ما يوجد داخل الخزانة حتى أصبحت فارغة، لا يوجد بداخلها إلا مقبض باب، ولا أعلم ما فائدته هنا، أخذته ونهضت من مطرحي للبحث عن باب ينقصه مقبض، لكن لا يوجد بحثت داخل الأريكة، وبحثت أسفل السرير، لا يوجد شيء آخر أين تُخبئ الجثة يا حامد؟ أقف أمامه مكتوفة الأيدي، أراه وهو يلتقط أنفاسه، لم أعرف ما أقول له عند الاستيقاظ؟

تابعت النظر إلى خزانة الثياب وخطر على بالي شيء جنوني. قال لي الحاج سعيد إن هذا المنزل كان يعيش فيه قبل حامد، وفي أثناء حديثه قال إنه به غرفتان..

- "تلك المنزل كان منزلي قبل شرائه الحاج حامد، منزل بسعة غرفتين، ماذا أفعل به وحدي دون أطفال."

حتى الآن أنا لم أرَ إلا غرفة واحدة أقف فيها، أين الثانية؟ خرجت إلى الصالة للبحث عن غرفة أخرى، لكن لم أجدها. غرفة واحدة بمدخل واحد!! لكن بجانب مدخل الغرفة لاحظت طلاءً يلمع عن باقي طلاء المنزل، يثبت ذلك بأنه وُضع حديثًا. هل هذا مدخل الغرفة الثانية وقد قام حامد ببناء سور لغلقه؟ لذلك السبب جلب عُدّة لكسر السور والطلاء الجديد، لكن يتبقى شيء ما، ما وظيفة المقبض الموضوع بجانب الأوراق؟ هل الدخول للغرفة الثانية من باب خفي أين تلك البـ..؟

ركضت سريعًا نحو الدولاب، بحثت فيها مرة أخرى عن فتحة صغيرة يوضع فيها المقبض، ولحسن الحظ وجدتها، على الرغم من أنه صعب الوصول إليها، لكن وجدتها. باب صغير جدًا داخل الدولاب ينقصه مقبض للفتح. وضعت المقبض وقمت بالضغط لأسفل ليفتح، لم أرَ مثل هذه الأفعال إلا في السينما. الباب كان يخفيه حامد داخل الخزانة من أجل صعوبة رؤيته.

دخلت الخزانة التي تؤدي إلى الغرفة الثانية التي تشبه المقام، لم تشبه المقام، فهو مقام فعلًا!! غرفة تحبس الأنفاس عند الجلوس بها، قبة إسمنتية كبيرة يوضع عليها رخامة محفورة: (خيرية عبد الحميد أنور). دُفنت هنا

هل هذا كل ما أخفاه حامد عن الجميع؟ ماذا سيفعل أبناؤها عندما يعلمون بما فعلته يا حامد؟ سيقتلونك ويترحمون عليك!

بجانب المقام توجد مرتبة سرير، كان يغفو في النوم بجانب شقيقته على أمل أن يراها في المنام وتسامحه. بجانب المرتبة توجد أدوية جميعها تحتوي على مادة (المنوّم)، وجانب المرتبة من الجهة الأخرى تكدست زجاجات فارغة منتشرة بكثرة، وكأنه يريد فقدان ما فعله. أما على القبة من الأعلى، لمحت ظرفًا تغطيه طبقة من التراب الناعم، قمت من مطرحي لجلبه، فهو مغلق ببعض من الصمغ، ويُكتب عليه من الخارج:

- "بالداخل يوجد كل ما يدور في عقولكم".

لم أنتظر قليلًا لفتحه، قطعته وأدخلت يدي لأمسك ورقة مطبقة عدة مرات، فهي رسالة مكتوبة بخط اليد، مضمونها:

لم يخطر على عقلي في يوم أفعال مثل ما أروي لكم الآن، لم أقدر أيضًا على قول إن المتسبب في تلك الأخطاء هو شيطاني، ولم أعرف أن الأمور ستصبح هكذا، لكن حدثت. في هذا اليوم الذي تمسكون فيه ورقة اعترافي بقتل شقيقتي، سأكون أنا بجانبها، وإذا أردتم الحقيقة فهي التي قتلتني بأفعالها السامة، كانت تُحب نفسها وتحب أموال والدي أكثر من أي شيء، لذلك قامت بخداعي.

قبل اختفاء خيرية بساعات..

"والدي عبد الحميد لم يكتب ثروته وأملاكه جميعها لخيرية يا حنان."

- "كيف علمت بتلك الأمور يا حامد؟!"

"أرسلت لي رسالة نصية بأن الأرباح التي توزع علينا كل شهر شفقة وصدقة منها؛ لأن جميع المحلات كتبها والدي إليها بحكم أنها الوحيدة اللي كانت تعمل معه وتساعده."

- "أين الأوراق التي تثبت صحة كلامها؟ هل نحن صغار على تصديق تلك الخرافات؟"

"سأطلب مقابلتها اليوم لأطلع على الأوراق."

"أين ستقابلها؟"

- "في مكتب سراج محامي العائلة."

لم أنوِ قتلها، لكن أفعالها للنصب على حقوقي هي من دفعتني إلى فعل ذلك. أرسلت إليها عنوان منزلي الجديد، لكن أعلمتها أنه عنوان المحامي، وقام بتغيير عنوان مكتبه بسبب بعض الظروف. ذهبت قبلها هناك، وعندما اقتربت عقارب الساعة للسادسة سمعت صوت طرقات على باب المنزل، لم تخالف المواعيد، لكنها قادرة على مخالفة شرع الله.

"لن أشاهد منزلًا بهذا السوء يُسمى مكتب محاماة."

قالتها خيرية وهي تقف على باب المنزل، وفي يديها بعض الأوراق.

"تفضلي يا خيرية."

"أين سراج؟ أنا لم أرَ مكتبه."

بدأت تتجول داخل المنزل تتفقده جيدًا حرصًا من فعل أي شيء مني.

"سراج سيتأخر بعض الوقت بسبب زحام الطريق."

"الطريق خالٍ تمامًا، لا يوجد زحام."

"سيأتي في الحال، لا تقلقي، أنتِ في منزل شقيقك."

"منزل! هذا ليس مكتب سراج؟!"

قالتها وهي تجلس على الأريكة وتحتضن الأوراق، اقتربتُ إليها ثم جلست

بجانبها.

"في الواقع، سراج لا يدري شيئًا عن لقائنا، أحضرتك لأجل أن ننهي بعض الحسابات."

نهضت من مكانها وملامح الفزع مرتسمة على وجهها، كانت يداها ترتعشان وهي تقبض على الأوراق، لكنها حاولت إخفاء ذلك.

"لا يوجد حسابات بيننا، جلبت لك الأوراق التي تثبت أن والدك كتب لي كل شيء قبل الوفاة، فهي أمامك اطلع عليها، ومن اليوم ليس لديك نصيب في شيء."

وضعت الأوراق بجانبها وتقدمت نحو الباب محاولة الخروج، لكن يداها توقفت فجأة.. المقبض لا يتحرك! قامت بسحبه مرة أخرى بعنف، ثم تجمدت في مكانها وشهقت بصوت خافت، أدركت أنها محاصرة!

"الباب لم يُفتح معكِ حتى أنتهي من قراءة العقود التي قمتِ بتزويرها."

"لم أقم بتزوير أي ورقة من هذا.. والدك كتب لي كل شيء؛ لأنه يعلم أنني أستحق ذلك، لا أنتَ ولا نوال كنتم تفعلون ما أفعله."

"إدارة أملاك والدي لا تبيح لكِ أن تأخذي كل أملاكه، هذه تُسمى سرقة حقوق يا خيرية."

قلت عبارتي وأنا أقرأ العقود التي وضعتها بجانبي.

"وأنا قمت بسرقة أملاك والدك، لم تقدر فعل شيء يا حامد، كل الذي تحوم حوله هو المال من أجل شرب المغيبات والخمر، تريد أموال؟ خذ."

قالت عبارتها الأخيرة بلهجة حادة، ثم رمت بعضًا من المال في وجهي كما يُرمى شيء قذر..

بعد أن ألقت المال في وجهي، انفجر شيء داخلي، نهضت كالمسعور ومددت يدي نحو رقبتها وقبضت عليها!! بدأ صوت أنفاسها يتقاطع، وتمسك يدي محاولة الإبعاد عنها، لكني لم أشعر بما أفعله. كنت أضغط على رقبتها شيئًا فشيئًا حتى خمدت تمامًا وسقطت أمامي وأصبحت جثة بلا روح.

نظرت إلى عينيها المفتوحتين تحدقان في اللا شيء، ضاق صدري عند النظر

إليها بشكلها المخيف، تصعد أنفاسي بصعوبة، لم أدرك ما فعلته! جلست على الأريكة لالتقاط بعض الأنفاس، لم أستطع الجلوس وأنا أراها مقتولة أمامي، يرتعش جسدي بالكامل، أخشى أن يدخل علينا شخص ما، حاولت السيطرة على الخوف المنتشر في أرجاء جسدي، كتمت أنفاسي لثوانٍ للبحث عن فكرة أتخلص بها من الجثة لم أجد فكرة سهلة لإخفائها، جميعها يتطلب مجهودًا قاسيًا ومخاطرة.

إن أردت رميها في قاع المحيط فلن يكون ممكنًا، فقد يراني أحدهم أثناء الخروج من هنا، وإن أردت دفنها في إحدى المقابر سيعلم حارس المقابر ويبلغ الشرطة عني..

كادت تنفجر رأسي من شدة التفكير في أمرها، اقترح عليّ شيطاني دفنها في المنزل في غرفة مهجورة لم يزورها أحد. قمت بعمل مدفن لها مخصوص تكريمًا لها، وظللت بتكرار زيارتها كل يومين أبكي على قبرها؛ لأنها من تسببت في قتل نفسها وقتلي.

كان آخر شيء في جواب حامد أنه يعترف اعترافًا صريحًا بقتل شقيقته، لكن كان مخططه أن يقع في يد عائلته بعد وفاته، وليس أن يقع في يدي وأنا على قيد الحياة.

نهضت من مطرحي سريعًا بعد قراءة جوابه، متجهة إلى الشرطة، وقبل الخروج من غرفة المدفن لاحظت وجود خيال شخص يقف على باب الخروج. رفعت رأسي لمشاهدة الحاج حامد وهو يقف أمامي:

- "ماذا تفعلين بالداخل؟"

يمسك رأسه من شدة الألم، تغفو عينه، لكنه يفتحها ثانية بصعوبة.

"أنا.."

لا توجد إجابة تنقذني من تلك الورطة، ماذا سيفعل بي؟! لقد كشفت سره؟! إذا توسلت له لن يتنازل عن قتلي لا محال، أنا أقف أمام رجل قتل شقيقته ولم يغفر لها.

"ماذا تفعلين بالداخل؟"

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كرر جملته وهو يخطو للداخل، تراجعت للوراء حتى اصطدمت بظهري في قبة المدفن، وسقطت من يدي ورقته:

"علمتِ ما بداخلها!"

اتسعت عيناه عندما علم بأنني اطلعت على اعترافه! اقترب نحوي أكثر، ومد يديه في اتجاه رقبتي ليفعل معي كما فعل مع شقيقته من قبل.

"ترحمي على روحك، سوف أدفنك جـ..."

لم يُكمل عبارته، لقد سقط على الأرض بسبب ضربة قوية على رأسه أتت من خلفه، سقط حامد وظهر شخص آخر.

"عاصم! كيف جئت إلى هنا؟!"

"سأخبرك، لكن الآن يجب علينا الخروج سريعًا."

"قابلت والدي؟"

"لقد قابلته، وعرفت من قاتل الجثة".

"منْ قل ليّ"

انتقم مني حامد، وقام من مكانه ليضرب رأسي ضربة قوية كانت بالنسبة لي مثل المطرقة التي تزن مئة كيلو!

@ART_OF_BOOK

(عاصم)

البحث عن ما طلبته نور كان بالنسبة لي مثل مهمة يجب عليّ تنفيذها. لم أعلم لماذا أشعر بسعادة عند مقابلتها، لم أعثر على إجابة واضحة عن سبب تجمد عيناي عند رؤية عينها. هناك عدة أسباب لكن لم يبوح قلبي بها خوفًا من عقلي الذي يرشدني بالابتعاد عنها تجنبًا الوقوع في مشاكل حياتية، لكن أحب تلك المشاكل إذا كانت المتسببة فيها هي.

علمت مؤخرًا أن الشرطة تبحث عني وتراقب منزلي بسبب اليوم المشؤوم الذي استبدلت فيه السجائر مع السيد درويش. لم أرتح لهذا الرجل، أشعر بوجود شيء يخفيه عنا، لكن لم تشعر نور بتلك الحاسة لأنها تريد فقط المنفعة وتركه بعيدًا.

قمت بالابتعاد عن منزلي الذي تراقبه الشرطة، واتصلت بأحد أصدقائي المقربين للبحث عن مكان آخر أمكث فيه، حتى أبعد عني الأنظار قليلًا. في تلك الحالات، اللجوء لصديقي فضل هو الحل.

"أعلم أنك مشغول لكن أريد مساعدتك في شيء يا فضل."

"لا تقول، أنت أيضًا تريد منزل تختبئ فيه."

"كيف علمت؟"

سمعت ضحكة عالية قادمة من الجهة الأخرى، كان يضحك بصوت عالي عن تلك المصادفة.

"أنا أيضًا أبحث عن نفسك الشيء."

"إذاً فلنبحث سويًا."

"وقعت على مكان لم تصل إليه الشرطة، لكن لم أعلم إن كنت ستأتي معي أم لا."

"لا يوجد مجال للتفكير، أين هو؟"

"مستعمرة الجراج."

توقفت قليلًا عن الكلام، لم أفهم شيء من الذي قاله فضل، هل هذه منطقة جديدة أم مكان للعمل؟

"هل هذا منزل؟"

"لا، فهو مكان لإقامة مزادات للسجائر الممنوعة، تعرفت عليه من صديق أخر يبحث عن رجال تعمل معه هناك، ووقعت أنت أمامي بالصدفة، لكن لا يمكنك البوح لشخص لم تثق فيه عن ذلك المكان."

"أنا أريد الاختباء، إذا كان المكان ينفع للاختباء فأنا معك."

"قابلني غدًا عند مقاطعة الشارع القديم في السابعة صباحًا."

أغلقت هاتفي مع فضل، وفي السابعة كنت أقف احتضن جسدي من شدة البرودة التي أقابلها، انتظر فضل ليأتي بسيارته العتيقة، أنظر يمينًا ويسارًا خوفًا من مجيء رجال الشرطة يسحبونني بسبب تهمة الاتجار في السجائر. لا يوجد جريمة تثبت أنني أعمل فيها، لكن سيبحثون عني قليلًا، وعند علمهم باختفائي سيرحلون.

بعد الوقوف لعدة دقائق، وصل فضل أمامي بحافلة كبيرة وليس سيارة كما قال لي.

"أركب يا عاصم، ليس لدينا وقت، إنها ليلة المزاد."

صعدت حافلة مليئة برجال في سن العشرين، لا يعقل أن جميعهم يعانون من النفس الشيء الذي أخفيه.

"هل جميعهم تبحث عنهم الشرطة؟"

كان ذلك السؤال موجهًا لفضل الذي يقف على حافة الحافلة يشبه المرشد السياحي الذي ينقلنا للنزهة.

"لا، منهم من تبحث عنه الشرطة ومنهم من يبحث عن عمل، صاحب المستعمرة يبحث عن رجال جديدة تعمل معه."

"هذه مدينة جديدة تبحث عن عاملين."

"لا، موجودة منذ سنين لكن لم يعرف أحد عنها شيء، فهي تعمل في الخفاء. يريد صاحب المستعمرة تزويد رجال الحراسة استعدادًا لمقابلة العواقب."

"ما نوع العواقب التي تواجه تلك المكان وصاحبه؟"

@ART_OF_BOOK

"توجد أهم عقبة وهي رجال الشرطة."

اطمئن قلبي أكثر بعد سماع تلك الإجابة من فضل، الذي يريد أن تعثر علي الشرطة بكل سهولة. بعد أن لاحظ على وجهي القلق والخوف مما قاله، تابع عبارته وقال:

"لا تقلق يا عاصم، فهي مستعمرة تعمل منذ زمن ولم تعثر عليها الشرطة حتى الآن."

"سنكتشف هذا قريبًا."

"هيا، ادخل آخر الحافلة، حاول أن تستريح قليلًا، سنصل بعد ساعة من الآن أمام بوابة المستعمرة."

قالها فضل وهو يشير لي بيديه إلى آخر الحافلة. الجميع يغلق عينه ولم يدرك شيء عن ذلك المكان الغامض. لا يوجد بديل غير هذا المكان، فيجب عليّ أن أستمر حتى أصل إلى ما أريده أو ما أريده هو الذي سيصل لي.

بعد مرور وقت لم أدركه، سمعت صوت رجل سمين الجسد يقول:

"هيا، لقد وصلنا أيها الحثالة."

لا أعلم من هم الحثالة، لكن أنا لست منهم. قالها وهو يضرب بقدميه على جميع الرجال الجالسين أمامي، وعند الوصول لي نظر في اتجاهي بعينه الحمراء التي تشير إلى أنه لم يرَ النوم منذ أيام، وبصق أسفل قدميه ورحل. لكنه لم يقدر على وصفي بالحثالة.

نهضت وأنا أبحث عن فضل، لم أرَ وجهه بين جميع الرجال الذين تنهض وتنزل أمامي من الحافلة. تابعت السير وأنا أفتش في وجوه الباقين عن فضل، لقد اختفى، لا توجد آثار له. تابعت السير حتى وقفت أمام جدران عالية لا يمكن لشخص عادي تسلقها. توقفت لحظات قليلة، ثم دخلت من بوابة صغيرة تسع لشخص واحد فقط.

يقف رجل ليتفقد جسدي جيدًا، أخرجت من جيبي الهاتف واحتفظت به، ثم دفعني للدخول. دخلت من البوابة الصغيرة إلى أرض واسعة تضرب فيها الشمس من جميع الجهات، إلا واجهة المبنى الأصفر الكبير الذي يوضع خلف الستارة

الحمراء. نقف جميعنا في منتصف الأرض، لتفقد ذلك المكان، نرفع رؤوسنا للأعلى ونلتفت حولنا حتى فتحت الستارة الحمراء وظهر من خلفها رجل صاحب بشرة أمحاوية ولحية بيضاء وشارب صغير وعيون بنية ضيقة، لكن ما يميزه هي تلك العلامة الحمراء التي تسكن بجوار عينه اليمنى.

"مرحبًا بكم في مستعمرة الجراج، الجميع هنا ينال حريته التي تمنعها الحكام في الخارج، وأنتم هنا ليس للنزهة، لقد جئتم للبحث عن عمل يقدم لكم مالًا وفيرًا، وإذا لم أستطع إشباع رغباتكم فسوف تغادرون. أحب أن أنبهكم أنكم لا يمكنكم المغادرة، تربطكم بعض القوانين الصغيرة التي يجب عرضها عليكم. ومن ضمن هذه القوانين، لا يمكنكم مغادرة العمل في المستعمرة قبل مرور شهر، ولا يمكن استخدام الهاتف، ولا يمكن النوم يوم الخميس، لأنه يوم المزاد الذي يأتي إلينا فيه الرجال من الخارج لشراء سجائرنا واستبدالها. قبل البدء في العمل سيعرض عليكم ديفيد أماكن كل شخص وأين سيعمل."

أنهى الرجل حديثه، ثم خرج رجل آخر طويل القامة أصلع الرأس، بل أصلع كل شيء في وجهه، تبقى فقط حاجبه الأصفر. لقد قام باختيار عدة أشخاص ووزعهم على أماكن عملهم، استمر في توظيف الرجال، وتبقى أنا وشخصان آخران. نظر لنا قليلًا، ثم شاور لرجاله بأخذ الشخصين الذين يقفان بجواري، ظللت أنا واقفًا منفردًا ليس لدي عمل في تلك المستعمرة. نظر لي الرجل الأصلع ثم لصاحب المستعمرة وقال:

"إنه يشبه سيدي."

"نعم، هل ستوظفه مكانه؟"

"بالتأكيد."

لم أعرف من أشبه وسأعمل مكانه، لكن علي الاستمرار معهم حتى أطلع على تلك الوظيفة. سحبني رجل صاحب بشرة سمراء يرتدي ملابس منمقة وبهلوانية، وابتسامته معروفة، التفت له وأنا أتحقق منه بعناية ثم قلت له:

"هل أنت تعمل في الاستعراض؟"

نظر لي ورفع حاجبه، ثم تابع النظر أمامه وقال:

"لا، أنا كاتب عداد الموتى."

"هل يوجد هنا موتى؟"

"لعم، من يخالف الأمر يتم دفعه في قاع البئر."

"ومن يدفعهم؟"

"أنت الذي ستتولى هذه المهمة من اليوم."

توقفت عن السير معه، كان يشبهني بعشماوي، وأنا لا أحبه.

"أكمل السير، لا تقلق، فهي وظيفة سهلة، كان يفعلها توماس من قبلك."

"وأين هو توماس؟"

"هو الآن في قاع البئر بسبب عدم تنفيذ القوانين، أكمل السير وسوف أعلمك كل شيء."

أكملت معه طريقي ودخلنا غرفة صغيرة الحجم، يوجد بها سرير صغير ودولاب فقط، ثم تابع كلامه:

"تجلس هنا، ومعك تلك الأقدام، وعندما أطلبك ستأتي لدفع المجرم في قاع البئر، ثم تعود مرة أخرى إلى غرفتك، هذا هو عملك، لا تفعل شيئًا آخر."

"هل هذه أقدام توماس؟"

مسكت بعض الأقدام المطاطية، كبيرة الحجم لكنها مضحكة جدًا.

"نعم، فهي مصنوعة للعمل فقط."

وضعت الأقدام مكانها مرة ثانية، ثم التفت له قائلًا:

"هل يمكنني إجراء اتصال؟"

اتجه الرجل إلى عتبة الغرفة، نظر في الخارج، ثم عاد لي مرة ثانية وانحنى قليلًا ليقول بصوت خافت:

"لا تقولها بصوت عالٍ، من قوانين المستعمرة عدم استخدام الهواتف، أنت لم تسمع عن قوانين المكان هنا؟"

"أعلم بذلك، لكن كيف يمكنني التواصل مع الآخرين في الخارج، أريد الاطمئنان

على شخص قريب لي."

"لدينا جهاز لإرسال الرسائل النصية القديمة يمكنك استخدامه، لكن بعد الانتهاء من المزاد، يغادر صاحب المستعمرة ورجاله، ويتبقى الحراس فقط، يمكنك وقتها استعماله. سأغادر الآن لتجهيز بعض العمال الجدد لبدء المزاد."

غادر الرجل الأسمر وأغلق خلفه باب الغرفة الصغيرة. أسكنت في مكان يشبه غرفة الجثة الخاصة بنور، ماذا تفعل هي الآن بدوني؟ تبحث خلف الغامض والمثير، لا تعلم ما وقعت فيه. يأتي هنا كل تجار السجائر الذين يبحث عنها الجميع في الخارج، ويخرجون محملين به في الخفاء. استمريت بالجلوس في غرفتي الصغيرة حتى ينتهي المزاد بالخارج، لكن قبل الانتهاء سمعت بعض الصفافير في الخارج، لقد وقع الاختيار على شخص وتم وقعه في الخطأ، وطلب مني رجل عداد الموتى المجئ لدفع المذنب في قاع البئر.

يصعب علي دفع رجل للموت، لكن هذه القوانين ويجب علي اتباعها حتى تمر فترة وجودي هنا على خير. غادرت غرفتي وأنا أرتدي حذاءً كبير الحجم يشبه لاعبي السيرك في فقراتهم، تحركت ناحية البئر لأرى رجلًا يتخطى عمره ستين عامًا، شاب شعره وشاربه، ينحني ظهره من كثر الحمولة عليه، مكبل الأيادي والأقدام، يقف على حافة البئر ينتظرني كي أفعل وظيفتي، وتنتقل روحه للأعلى.

تقدمت خمس خطوات حتى وقفت أمام الرجل كما قال لي عداد الموتى، يجب أن يكون فارق المسافة بيني وبين المذنب خمسة أقدام. ينظر لي بشفقة، تتكلم عينه قبل فمه، يريد أن يقول لي لا يجب عليك فعلها، لكن أنا هنا لست صاحب الأمر، فأقوم بوظيفتي. قلت كلماتي في ذهني، لا يسمعها الرجل المسن لكن شعر بها، انحنى رأسه مرة ثانية أسفل قدمه، ثم صدرت صفارة عالية تشير لي بدفعه. سحبت بعض الأنفاس لملء صدري بالهواء، ثم كتمته لمنعه من الخروج، رفعت قدمي وفي وهلة سريعة ضربت الرجل في صدره ليقع في الأسفل. فعلتها وأنا عيناي مغلقتان، لا أريد مشاهدته وهو يقع، لكن صدر صوت من الأعلى يأمرني بفتح عيني لمشاهدة ما أقوم به، كي أخاف من الوقوع في خطأ مثله. كان مشهدًا مؤذيًا لي.

تابعني عدة كوابيس يظهر فيها الرجل المسن يتهمني بأنني من تسببت في قتله.

"لكن لست أنا، لست أنا، لست أنا."

قلت ذلك وأنا أفيق للمرة الثالثة من نومي، أشاهد نفس الكابوس. مر على دفع الرجل في البئر يومين، لكن ما زال يحوطني في منامي بكابوسه المزعج. غادرت غرفتي للبحث عن عداد الموتى، صديقي الوحيد في تلك المستعمرة، يجلس في إحدى الغرف المجاورة. تواصلت إليه بعد بحث طويل، غرفته مميزة بشعار القلم الذهبي، طرقت عدة طرقات على غرفته ليفتح لي عاري من النصف الأعلى.

"لقد جئت في وقت خاطئ."

"لا، لا، هذه عادتي، هل تريد شيء؟"

"أريد إرسال رسالة مثل ما فعلت من قبل."

"لمن تلك الرسائل يا عاصم؟ هل لديك حبيبة بالخارج؟"

قالها مظلوم وهو يذهب داخل الغرفة، تابعت الدخول وأنا أغلق الباب خلفي، ثم جلست على إحدى المقاعد الصغيرة الموضوعة وقلت:

"حبيبة من طرف واحد."

"لم تعترف لها بحبك حتى الآن؟"

"أخشى أن ترفضني مثلما فعلت من قبل."

"هل صرحت لها من قبل بحبك؟"

"ليست مصارحة، كانت بعض التلميحات، لكنها قابلتها بالرفض، قالت لي بأنها لا تفكر في ذلك الأمر، وبعد فترة عادت إلي مرة أخرى وهي تحمل مصيبة على اكتافها."

"ما نوع المصيبة التي تحملها؟"

نظرت إلى عيون مظلوم، أعلم أنه لا يمكنني الإفصاح عن الجثة، وبعد صمت دام قلت له:

"وجدت مصيبة عند إحدى صديقاتها وتبحث خلفها."

"وما شأنك بكل هذه المصائب إذا كانت لم تنظر لك بنفس نظرتك لها."

"الحب هو الشيء الذي يأمرنا كيف نتعامل مع الأشخاص، رؤيتها كل يوم كانت بمثابة وجود كنز يتجدد، أنا أعشقها يا مظلوم ليس حبًا عاديًا."

"وما فائدة العشق إذا كان المعشوق لم يشعر بعاشقه."

توقف لساني عن النطق بما قاله، نظرت في زوايا الغرفة ثم تابعت:

"تعلم أن وجودي هنا بسببها أيضًا."

"هل هي تتاجر في السجائر الممنوعة؟"

"هذه قصة طويلة سأرويها لك في وقت لاحق، أين جهاز الإرسال."

التفت مظلوم بجسده لجلب جهاز الإرسال، وقبل أن يضعه في يدي قال:

"أنصحك بأن تصارحها وجهًا لوجه، وإذا رفضتك هذه المرة اذهب بعيدًا عنها يا عاصم، لأن تلك الأرض ليست أرضك، وصعب عليك حصاد محصول واحد فيها."

أخذت من يديه جهاز الإرسال، ثم كتبت رسالتي المشفرة (520)

"أعلم يا نور أنك لم تفهمي شيء، لكن سيأتي يوم وأفعل بنصيحة مظلوم."

أعدت الجهاز له مرة أخرى، ثم قلت له:

"ستبقى المستعمرة هادئة حتى الخميس القادم."

"لا يوجد مزاد الخميس القادم."

"لماذا؟"

"سيذهب صاحب المستعمرة زيارة لصديقه صابر الأحمدي."

"من هو صابر الأحمدي؟"

"يمتلك نصف هذه المستعمرة أيضًا."

"أين هو، أنا لم أره من وقت ما جئت إلى هنا؟"

"هم الاثنان من قاموا ببناء هذا المكان، لكن لسوء حظ صابر قبضت عليه رجال الشرطة وتم حبسه لعدة سنوات، ويذهب له عاطف الدراملي كل شهر ليخفف عنه محنته."

"ولماذا قبضت عليه الشرطة؟"

"كشف أمره بالخارج أثناء إجازته من المستعمرة."

انتظرت كثيرًا وأنا أفكر في ذلك الاسم، أشعر بأنني سمعته من قبل.

"صابر الأحمدي، لقد سمعت هذا الاسم من قبل."

"أين ستسمعه، تلك الرجال تعيش في الخفاء بسبب بحث الشرطة عنهم."

"لا، لقد سمعت هذا الاسم من قبل."

"الجلوس في المستعمرة جعلك تفقد صوابك."

نظرت لسقف الغرفة وأنا أحك سبابة يدي اليمنى في فروة رأسي، ثم نهضت من مطرحي وأنا أضع يدي بالكامل على رأسي، متعجبًا من ما تذكرته.

"صابر الأحمدي، لقد تذكرته، إنه والد نور."

"نور من؟"

"نور التي كلمتك عنها منذ قليل، كانت تبحث عن والدها صابر الأحمدي، يجب علي مقابلة صاحب المستعمرة، يجب علي مقابلته."

قلتها وأنا أتحرك عدة حركات لا فائدة لها.

"اهدأ يا عاصم، لا يمكنك أن تتواصل معه حتى يأتي لنا."

"متى سيأتي؟"

"لم يأتي إلا بعد مرور أسبوعين على الأقل."

"لا يوجد حل آخر."

"لا يوجد حل آخر، يجب عليك الانتظار."

"يجب عليّ الانتظار."

جلست مرة ثانية في غرفة مظلوم، أتخيل ذلك المشهد الذي أذهب فيه لنور ومعي خبر أنني عثرت على والدها، تلك المرة سأحفر في قلبها شهامتي التي لا تنسى.

مرت الأيام بثقل، وتعرفت فيها على جميع الرجال الذين يعملون هنا، كونت صداقة عالية، وسألت عن صديقي فضل وعرفت أنه يعمل خارج المستعمرة ليقنع الرجال في الخارج بمجيئهم إلى هنا، لقد خدعني، لكن خدعته كانت سببًا في أن أصل إلى والد نور وسوف أقابله.

أذهب كل يوم إلى غرفتي وأتذكر نور، وأرسل لها رسالتي المعتادة، ولم أنتظر منها ردًا، لكن انتظرت لحظة رجوعي إليها. مرت أسابيع حتى جاء وقت المزاد، وعاد صاحب المستعمرة مرة أخرى، تكلمت مع مظلوم عن طريقة للحديث مع صاحب المستعمرة، وعلمت منه أنه شخص عادي، ليس ملكًا يمتلك قلعة وجيوش، هو يتكلم مع الجميع على انفراد، وإذا رغبت في ذلك يمكنني التحدث معه قبل بدء المزاد.

يوم الخميس كان يومًا ملئ بالازدحام في مستعمرة الجراج، يأتي الجميع على أمل أن يقع المزاد عليه ويحصل على السجائر القديمة، وبسبب ذلك الازدحام يقوم صاحب المستعمرة بالتنبيه على الحراس ليصبحوا يقظين، لأن الفئران تأتي في أي وقت لإفساد الطعام.

بعد أن ألقى صاحب المستعمرة بعض التعليمات عليهم، غادر الجميع وظللت واقفًا.

"هل تريد مساعدة يا عاصم؟"

"أريد طرح سؤال عليك سيدي."

"اقترب."

جلس على مقعده الطويل، اقتربت منه حتى وقفت بجواره قائلا:

"صديقك الذي تزوره في السجن أريد مقابلته."

نظر لي بملامح تعني عدم فهم شيء مما قلت له، تابعت كلامي وقلت:

"صديقك الذي قبضت عليه الشرطة أريد مقابلته."

"هل تعرف صديقي خيري؟"

"لا، لا، الذي أقصده صابر الأحمدي."

قام من مجلسه، وترتسم الحيرة والذهول على ملامحه، ثم نظر لي بوجه كاد أن يفقد صوابه وقال:

"من أين تعرف صابر صديقي؟"

"لا تقلق، فهو والد صديقتي التي تبحث عنه ولم تعثر عليه، وبالصدفة علمت بأنه صديقك ويملك نصف المكان."

"صابر قال لي من قبل أنه لديه ابنة، لكن أنا لم أعثر عليها."

"كل الذي أعلمه أنه لديه ابنة اسمها نور وهي تبحث عنه."

"أين هي؟"

"ليست هنا، فهي خارج المستعمرة، كل الذي أريده منك مقابلة صديقك في الزيارة القادمة لأستفسر منه عن سبب غيابه عن أسرته وأعلمه بمكان ابنته."

تابع النظر نحوي ولم يبعد عينه عني، أعلم أنه لم يشعر بالارتياح نحوي، صمت وقتًا طويلًا حتى نطق:

"إذا كنت تكذب في كلامك وعلمت أنك تعمل لإفساد تلك المستعمرة سوف..."

قطعته قبل أن يقول شيء، ونطقت أنا بحكم لا يمكنني فعله:

"ادفعني في قاع البئر."

أطلقت جملتي دون مرورها على عقلي، لم أستوعب ما نطقت به، ماذا سأفعل إذا كانت تشابه الأسماء فقط؟ سأقفز في قاع الموتى مع محبي السجائر الممنوعة، ستنتهي حياتي هكذا في مستعمرة مخفية في آخر البلاد لم يعلم طريقها أحد. لم يرد على عبارتي بكلمة واحدة، لكن قال جملته قبل مغادرة مقعده:

"سوف أعثر عليك وستدفع أنت نفسك في البئر."

جملته كادت أن تدفعني للسقوط في البئر، تبقى الأمل الوحيد في مقابلة صابر يجعل المسافات بيني وبين نور أقرب، أصبحت حياتي مملة بشكل ملحوظ، انتظار قدوم موعد الزيارة أصبح شيء من الصعب قدومه، كل يوم أفيق على أصوات الرجال وهم يركضون في ساحة السوق، يتدربون على حماية المكان.

كانت مهمتي غيرهم، ليس لديها تدريب، كل الذي أفعله هو النظر إليهم وعلى مهارتهم التي اكتسبوها من هنا. بعض الأعمال تفيد جسدك دون إدراك منك، أصبح جميع الرجال هنا أصحاب قامة عريضة ووجه مقسم ببعض المنحنيات، توجد قلة قليلة من النساء التي تعمل في حراسة المستعمرة من الداخل وتعمل أيضًا لدى صاحب المستعمرة، فهم هنا بمثابة الجواري يعملون بأقصى جهدهم لإرضاء عاطف الدراملي، العمل هنا يتيح لك المال بكثرة، لكن إذا علمت الشرطة بوجوده ستأخذ كل ما هو بالداخل ولا تسمح لأحد بالهروب. وجودي هنا كان على حافة الضياع، لكن أنا لست مقيمًا هنا للأبد، سأرحل بعد زيارة صابر، لكن سيبقى سر المستعمرة مدفونًا في بئر الممنوعات ولا يجب خروجه للعلن.

مرت الأيام حتى التقيت بنور، صدفة غريبة تحدث مرة في المليون، ومن الغريب أن يجمعنا مكان مثل هذا، والأغرب أنني التقيت بها وهي على حافة الموت، كان يتبقى من عمرها القليل، لكن الحظ حفيظها أن تتذكر تفاصيل وجه الصديق المقرب لوالدها، والباقي تعرفه أنت.

لم يتغير الكثير حتى أتى اليوم الموعود للزيارة التي انتظرها، وقبل شروق الشمس ظللت ممددًا على سرير أحدق في سقف الغرفة أفكر فيما سأقوله لوالد نور.

دقت الساعة السابعة صباحًا، وأمر صاحب المستعمرة بخروجي، وقال لي إذا أردت الرجوع للعمل هنا فهم في انتظاري، ولكن إذا أردت الخروج عن عالمهم يجب عليّ الصمت مما رأيته بالداخل، فهي حياة أخرى ويجب عدم البوح عنها. عملت لشهر وأكثر لديهم دون مقابل لأحصى بتلك الزيارة.

لم أدخل زيارة لسجين في يوم، ولما أخطى بجانب سور توجد عليه حراسة بهذا الكم، كل عشرة أمتار يوجد برج مرتفع يجلس فيه عسكري يرتدي ملابس عسكرية مموجة، يحمل على ذراعيه سلاحًا موجهًا للمارين في الخارج، إذا قام شخص بمحاولة الدخول إليهم دون إذن، يحصل على طلقة سريعة تصل قلبه.

وصلت أمام بوابة سوداء كبيرة الحجم، يقف أمامها أشخاص كثيرون من مختلف الأعمار والأجناس يحملون أكياسًا بلاستيكية بداخلها بعض من الطعام، يقفون خلف بعضهم ويدخلون واحدًا تلو الآخر. انتظرت حتى جاء دوري في الدخول وعبور تلك البوابة العتيقة. كنت أظن أنني أتخطى البوابة لأرى مكان

الزيارة، لكن يبدو أن الأمور عكس ذلك.

بعد أن مررت من داخل البوابة، وجدت ممرًا طويلًا، يقف على مدخله رجل يمسك في يديه ورقة بيضاء يقرأ منها أسماء لم أعرفها، ولم أعرف أيضًا ماذا علي أن أفعل عند سماع اسمي، لكن علمت مؤخرًا أن تلك الأسماء ليست للزوار بل للسجناء المتاحين للزيارة اليوم. بعد مرور دقائق سمعت اسمه:

"صابر الأحمدي طه."

اسم مميز لا يمكنني نسيانه، كيف لم أدركه أول مرة عند سماعه من مظلوم.

"صابر الأحمدي طه."

قالها العسكري مرة أخرى بصوت عالي كاد أن يخرج حنجرته ليبلغني باسمه.

"نعم، أنا الزائر."

قلت جملتي بصوت خافض، توقف لساني عن النطق في التجمعات، أشعر بالتوتر وزيادة في العرق عندما ينظر لي الجميع بسبب صوتي الرفيع الذي يخرج دون قصد.

"اكشف عن هويتك."

أخرجت بطاقة التعريف ليطابقها مع اسمي المدون في الورقة، نظر للبطاقة ثم نظر للورقة وأعادها لي مرة أخرى قائلا:

"تفضل الدخول من هنا."

أذن لي بالدخول من الممر الذي يؤدي لمكان الزيارة، فهو مكان ضيق يسع مرور شخص واحد فقط. استمريت في السير حتى رأيت ضوء الشمس يظهر تدريجيًا، وبعد أن خرجت للنور ظهر أمامي رجل آخر يرتدي نفس ملابسهم الصفراء المموجة، يأمرني برفع يدي كي يفتش جيوبي. نفذت ما قاله لي، وبعدما انتهى من عمله، علمت أن ذلك الممر الذي مررت منه ليس للنزهة، بل يوجد داخله أجهزة استشعار للكشف عن ما يوجد داخل ملابسك، والذي يرى كل هذا رجل يجلس على اليسار أمامه شاشة تظهر كل الأشخاص المارين داخل الممر.

***

الأقلام والراديو والحوار السياسي ممنوع، تلك المعلومات كانت مدونة على يافطة كبيرة بجانب رجل الشاشة. لم أفهم لماذا هذه الأشياء بالذات ممنوعة على السجناء.

بعد مرحلة التفتيش، أدخلني رجل من باب حديد مفرغ، ومن بعده باب خشبي يؤدي لغرفة الزيارات.

لم أفهم منه أين هو صابر الذي أريد زيارته، أنا لم أعرف ملامحه، لم أحظ برؤية وجهه يومًا، نعم أعرف نور منذ زمن لكن لم أر والدها. رأيت عدة نوافذ زجاجية بجانب بعضها، يجلس الزائر في الوجهة المقابلة لي، والوجهة الأخرى يجلس المسجون، وبينهم زجاج فاصل شفاف، وحلقة الوصل بينهم هي هاتف أرضي مزود بسلك، توجد سماعة عند جميع الأطراف ليسمعوا بعضهم.

رأيت جميع المقاعد يجلس عليها أشخاص، إلا مقعد واحد كان خاليًا من الزائر، لكن كان المسجون ينتظر. اقتربت خطوات حتى توقفت أمام مقعدي، مددت يدي لرفع سماعة الهاتف وقلت:

"هل أنت صابر الأحمدي؟"

نظر لي الرجل صاحب الجسد النحيف الذي يؤكد أنه لم يحصل على طعامه منذ أيام، وملامحه كانت مخلوطة بالشعر الأبيض والأسود، والعين البنية، وبشرة أمحاوية يشتهر بها سكان الكرة الأرضية. نظراته تتكلم قبل لسانه، أمسك سماعته وقال:

"نعم."

ظهرت على ملامحه علامات استفهام، أعرف أنه لم يقابلني صدفة في أحد الشوارع كي تضيع زيارة وحيدة يتحصل عليها كل شهر. جلست على مقعدي وأنا مقلق من هذا الحديث، نظرت له قليلًا وقبل أن أطلق فمي بحرف قال لي:

"من أنت؟"

"أنت لا تعرفني، لكن أنا أعرفك، فأنا عاصم صديق نورا!"

يبدو أنني أطلقت رصاصة أسفل أقدامه، عندما سمع اسم ابنته، نهض من مطرحه وبدأ يقفز، وظهر على وجهه الابتسامة، عاد إلى موضعه مرة أخرى بعدما

حذره العسكري الذي يقف خلفه، أشار له بالعودة لمطرحه وإكمال زيارته دون إزعاج.

مسك سماعة التواصل بيننا، ثم قال:

"هل هي حية؟"

"نعم، سوف أقابلها بعد الانتهاء من الزيارة."

لم يصدق كلماتي، ينظر يمينه ويساره، حتى بدأت تلمع عيناه بالدموع. أنا لم أفهم لماذا يطرح عليّ هذه الأسئلة، كان يظن أنها فارقت الحياة أم كان يشك في شيء لم أعرفه.

"يجب أن تهدأ، لدي كلام أريدك أن تسمعه."

"أسف، فأنا لم أعرف عنها شيء منذ آخر مرة."

مسح تلك الدموع الساقطة من على وجهه، رأيت بعض الندبات على يديه، فهي آثار تعرضه للتعذيب.

"هل أنت تعاني من الندبات التي تسكن يديك؟"

"لا، لا، ستمحى مع الأيام. قل لي كيف حالها؟"

"تقصد نور؟ فهي تعيش، وتقابل بعض العقوبات فقط في عدم وجودك."

"ليس بيدي شيء، أنا هنا..."

قطعت عليه قبل أن يكمل عبارته:

"أعلم بكل ما وصلت إليه، لكن أنا جئت إلى هنا لأعلمك أن نور تبحث عنك، تريد معرفة لماذا هجرتها هي وأمها كل هذا الوقت؟"

لم أعرف لماذا يتخشب وجهه عند سماع كلماتي، لقد توقف عن الحركة، فهو يشبه تماثيل الجبس وأشد منهم، يضع السماعة على أذنيه ولم يقل حرفًا.

"أستاذ صابر، هل تسمعني؟"

"نعم، أسمعك أسمعك... هل قلت أمها؟"

"نعم، نور تعاني هي وأمها بدونك، تبحث عنك لكن لم تعثر عليك، لذلك أبلغتني

بأنني أبحث أنا، ولقد وقعت أمام صديقك بالصدفة ف..."

"هل تقصد بكلمة أمها تقصد بها فاتن؟"

قاطعني صابر قبل أن أشرح له كيف علمت مكانه، صمت قليلًا، ثم قلت له:

"لا أعرف اسمها لكن..."

"هل رأيتها؟"

"من هي؟"

"فاتن، والدة نور؟"

"لم أراها، لكن تكلمني عنها نور، فهي تعيش معها في الغرفة."

أمال رأسه أمام الزجاج وقال بصوت عالي:

"كيف، كيف تعيش معها في الغرفة وهي..."

توقف صابر عن الكلام في منتصف جملته، التي لم يكملها بسبب ضربه للزجاج الفاصل بيننا. نظر له العسكري الذي يقف خلفه عند باب الخروج وحذره للمرة الثانية، وإذا فعل شيئًا مرة أخرى سوف ينهي زيارته.

"أستاذ صابر، أنا أعلم بكل شيء عن الجثة؟"

"هي التي قالت لك؟"

"نعم، طلبتني في يوم للبحث معها، وحتى الآن لم نصل للقاتل لكننا نعمل في الخفاء."

"ماذا تقصد بـ لم نصل للقاتل؟"

"أقصد أننا لم نصل للقاتل، ليس لها شرح آخر."

"كيف لم تصل؟ ما هي الجثة التي تتكلم عنها؟"

"الجثة التي وجدتها نور عند إحدى صديقاتها."

"هذه الجثة غير جثة فاتن!"

"نعم."

ارتفع حاجبي عند سماع ما قاله صابر، ماذا يقصد بجثة فاتن والدة نور؟

"لماذا تقول جثة فاتن وهي على قيد الحياة؟"

"مستحيل أن تكون على قيد الحياة، أنا الذي وضعتها بيدي في الدولاب!"

"هل قتلت زوجتك؟"

"ليس أنا، نور التي قتلتها!"

سقطت من يدي سماعة الهاتف، لم أفهم شيء مما يتفوه به صابر، لم يستوعب عقلي مرور تلك الكلمات، مستحيل أن يكون كلامه صحيح، كيف؟ كيف قتلتها وهي تجلس معها؟ مع من كانت تتكلم إذا كان كلامه صحيح؟ ظللت أنظر إليه بدون وضع السماعة، أشار لي بجلب السماعة لأكمل باقي جملته، لم أشعر بيدي، لم أشعر بجسدي كله، تمالكت أعصابي ورفعت سماعة الهاتف مرة أخرى لأسمع باقي ما لديه.

"يجب أن تسمعني قبل نفاد وقت الزيارة، الذي أرويه إليك الآن لم أقله لشخص آخر، ولا قلته لصديقي عاطف، لكن إذا كنت أنت صديقها وتبحث معها خلف جثة، يجب أن أعلمك عن ذلك اليوم المشؤوم الذي قتلتها فيه!"

"أنا لم أصدق أنها قتلت أمها، فهي تعيش معها، يبدو أنك تلعب بي!"

"اسمعني، يجب أن تلحق صديقتك، فهي تعاني من المرض. منذ طفولتها كانت تجلس في غرفتها دومًا وتلعب مع شقيقها التوأم، تراه وتتحدث معه وتستشيره في ملابسها، بل كانت تجبر أمها على أن تحضر له طعامًا، وهو في الحقيقة ميت، فارق الحياة في حادث لعين. كانت تعشقه ولم يصدق عقلها بأنه فارق الحياة.

كان كل شيء جميل في يومها، لكن القدر خبأ لها ما لم تستوعبه، عندما سمعت خبر وفاته ظلت تصرخ لأيام وتتهمني بأنني قتلته، رفضت الطعام لمدة طويلة حتى رأيتها تأكل لكنها كانت تتكلم مع شخص يجلس بجانبها وتطعمه، وتقول إنه شقيقها نادر. كنت أراها كل يوم أمام عيني وهي تسوء حالتها، عرضتها على طبيب صديقي قال إنها تعرضت لصدمة قوية، تتخيل أشخاصًا ليس لهم وجود. أشخاص هي تريد وجودهم، لكن يمنعها الواقع فتتخيله وتسمعه وتتحدث معه.

طلب مني أن أقترب منها أكثر وأتكلم معها، وأقنعها بالعلاج، لكن دائمًا حياتي

@ART_OF_BOOK

العملية تشغلني عنها. مرت السنين وكبرت نور وبدأت تنسى حادث أخيها بانشغالها في العمل، وبدأت بعدم تذكر الحادث، ومنعت سيرته من المنزل خوفًا أن تعود حالتها لتسوء مرة أخرى. انشغلت أنا عنها وبدأت في تجارة السجائر الممنوعة، وبعد تعثري وسرقة جميع أموالي هربت من الذين يطلبون مني المال.

بحثت عن غرفة صغيرة أسكن فيها بعيدًا عن أعين الناس، رأيت غرفة أعلى إحدى العقارات التابعة لعائلة عبد الحميد وسكنت بها، وبعد مرور سنين التقيت بنور ابنتي مرة أخرى. يومها شعرت برجوع الأيام وذكريات أليمة لا أحب تذكرها، كنت ناويًا على الرجوع إليهم بعد استمرار حالي، لكن نور كانت تلومني على فارقي لهم وأبلغتني أن أمها فاتن تريد مقابلتي وتريد رجوعي للمنزل مرة أخرى.

ذهبت معها للمنزل على أمل أن تسامحني فاتن على كل أفعالي، لكن صدت كل أبواب السماح في وجهي، رفضت مقابلتي ورفضت التحدث معي، رفضت أن تنظر في عيني. ظلت نور تطلب من أمها أن تسامحني وطلبت منها أن تزيح غضبها عني، لكن أصرّت فاتن على رأيها وعلى أنني بالنسبة لها ميت ولم أعد للحياة.

يومها نور لم تتحمل ما تفعله أمها معي، كانت تريد عودتي للمنزل، لكن فاتن ترفض وتحاول طردي بأي شكل. حصلت بينهم مشدات في الحديث، تدور جميعها على أن نور تريد رجوعي وأعيش معهم مرة أخرى وأمها ترفض. هددت نور أمها وقالت لها إذا رفضتي رجوع والدي سوف أذهب معه. استمر الحديث بينهم كثيرًا حتى انقلب إلى جريمة.

يومها كنا نتكلم في الطابق الثاني للمنزل، وكنا نتحدث على حافة السلم، دفعت نور أمها دون قصد من على مقعدها المتحرك لتسقط برأسها على إحدى درجات السلم حتى وصلت إلى آخر درجة، كان من الممكن أن تنجو من الحادث، لكن كان الاصطدام قويًا أدى لفقدان الوعي والنزيف. كان مشهدًا قاسيًا علينا جميعًا، لم أتخيل أن تفعل نور هكذا في أمها. أنا أصدق تمامًا أنها لم تقصد ذلك الفعل، لكنه حدث.

ظللت متخشب النظر على مطرح الحادث، أنظر لفاتن التي تخرج دماءها من الأنف، وأنظر لنور التي وضعت يديها على وجهها ولم تصدق فعلتها. ركضت سريعًا نحو فاتن، وضعت يدي على قلبها، شعرت بأنه توقف عن النبض وتوقفت

عن التنفس، في تلك اللحظة شعرت أنا بضيق في التنفس وشعرت أن ابنتي سوف تضيع مني مرة أخرى، لكن فعلت ما يتوجب عليّ فعله.

"ذهبت بها إلى أقرب مستشفى."

قلت ذلك وأنا على أمل أن يقول لي نعم، وعلى أمل أن تبقى فاتن على قيد الحياة، لكن حطم صابر أحلامي وأكمل:

"خفت أن تموت هناك وتسأل الأطباء عن الفاعل وتُسجن نور."

"أما ماذا فعلت؟"

"اقتربت من نور لأعلمها بأن سر الحادثة يفضل بيننا، رفعت الجثة من على درجات السلم ومسحت آثار الدماء، ثم خرجت لتجهيز السيارة، وقمت بوضع الجثة داخل السيارة وأغلقت المنزل جيدًا، وأخذت نور وذهبت نحو غرفتي التي أعيش فيها. كان يعوقني ذلك البواب الذي يجلس على باب العمارة، ظللت أنتظر في السيارة حتى يحل الليل ويغادر من أمامها.

أخرجت الجثة وذهبت سريعًا داخل العمارة، وصعدت لغرفتي ووضعتها هناك. في ذلك الوقت لم تنطق نور حرفًا واحدًا، ظهر عليها الصمت مرة أخرى مثل ما حصل معها في حادث شقيقها، تفرق في يديها، تأكل في أصابعها، وتنظر في لا شيء، وتسقط الدموع منها، تفعل أشياء غريبة. اقتربت منها وقلت لها إنني سأدفن الجثة ولن يعلم أحد عنها، وسنخفي السر سويًا ونعيش حياتنا، لكنها لم تسمعني، كانت في عالم آخر لا أعلم عنه شيء.

أدخلت الجثة في الغرفة المقبلة، كانت مغلقة منذ سنوات ولم يفتحها الحاج حامد ولم يقترب منها، كان يوجد بداخلها دولاب قديم بداخله بعض الملابس القديمة، وضعت الجثة خلف الملابس وأغلقت الدولاب ثانيًا على أمل أن أعود مرة ثانية وأتصرف في الجثة، لكني لم أعد.

"ماذا حدث لك، لماذا لم تعد؟"

"يومها انتظرت بجانب نور حتى تنام، كانت متخشبة، درجة حرارة جسمها باردة، قلقت أن يحدث لها شيء مكروه، وضعت عليها الفراش، ثم ذهبت لجلب بعض الأدوية والطعام لتأكل، لكن لم أعد. يومها اشتبكت مع أحد رجال الشرطة بسبب أنني لا أملك رخصة قيادة، وعندما كشف على هويتي علم بأنني مطلوب

للعدالة بسبب تهريب السجائر الممنوعة. قبض علي ولم أعلم شيء عن نور يومها، ولم أقدر على فصح كل ما رويته لك لصديقي عاطف."

بعد أن تخلص صابر من ما قاله عن نور، وضعت يدي على رأسي من شدة الوجع، لم يُعقل كلامه، لم يصدقه بشر، لم يصدقه عاقل يعلم كل شيء عن نور واليوم يعلم أنها قتلت أمها. رفعت السماعة مرة أخرى وقلت له بصوت خافت:

"كيف ترى أمها كل يوم وهي التي قتلها؟"

ظهر على صابر ابتسامة معبرة عن سوء فهمي لما حدث لها:

"عاد المرض إليها مرة أخرى.. في أولى كلامي لك أعلمتك أن نور تعرضت لصدمة، وبسببها تعرضت لرؤية أشخاص لا وجود لهم، وتعافت منها بصعوبة، ويوم حادث أمها يبدو أنها تعرضت لصدمة أقوى، وما يحدث لها الآن، الأعراض لا يمكن أن تصدق ما حدث لها وتعيش على أمل أنها موجودة."

"يبدو أيضًا أنها تتعرض لفقدان ذاكرة، فهي لم تتذكر شيء عن الحادث الذي روايته لي."

"لا أعلم ما حدث لها بعد ذلك، لكن كل الذي أعلمه أنها في خطر قادم، لذلك يجب أن تلحقها."

"انتهت الزيارة يا حضرات."

قالها الرجل الذي يقف خلف صابر، ثم اقترب منه وقبض على يديه وبدأ في سحبه للخلف:

"لا تنسى يا عاصم، لا أحد يعلم بما قلته لك، لا أحد يعلم بشيء، لا تفصح عنه."

كانت آخر كلمات والد نور لي، لا أحد يعلم بما قاله، لكن كيف سيصمد ذلك السر ولم أبح به لنور؟ يجب أن تعرف، يجب أن تعرف أنها التي قتلت أمها، تبحث عن القاتل منذ ذات الوقت ولم تعرف أنها المتسببة فيما تبحث خلفه. كيف سيكون شعورها؟ من الممكن أنها لم تصدق كلامي، ستتهمني بالكذب، أو من الممكن أن تتهمني بالجنون، فأنا لم أصدق ما قاله والدها، لكن لا يوجد شك فيما قاله، فهي تعاني من مرض ما وتعيش بجوار أمها الوهمية التي تراها هي فقط.

يجب أن أرحل وأذهب إليها. نهضت من مطرحي، وضعت السماعة في مكانها،

ألقيت التحية على مقعد صابر الفارغ وغادرت الزيارة.

***

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

(4)

(الحقيقة)

رؤية ضبابية وطرابيزة صغيرة وطبق مملوء باللحم ومنزل كبير يسع أكثر من شخص. تفاصيل المنزل توحي بأنني عدت بالزمن قليلًا للخلف. أنظر على الحائط أرى بروازًا لأمي بفستان أبيض، ومعها أبي يبتسمون على ليلة زفافهم التي لم أحضرها، وعلى يساري منضدة صغيرة يوضع عليها تلفاز قديم يقف على محطة الكرتون، وفي الخلف أسمع أصوات أمي واقفة في الممر المؤدي للمطبخ، يرتفع صوتها.. يبدو أنها في مشدة كلامية مع والدي، لكن لا يهمني كل هذا، هدفي التخلص من الطعام أنا و(نادر) لنلعب على جهاز الكمبيوتر. وضعت مغرفتي في طبق الأرز الموضوعة بيننا وأخرجتها بهرم من الأرز، اتجه بها ناحية فم نادر.

"افتح فهي لك"

لم يحرك فمه، فهو ينظر لي بوجه ثابت وجسد متخشب. حاولت عدة مرات، لكن كما هو لم يغير من موضعه.

"لم نلعب سويًا إذا رفضت تناول الطعام"

"لم يأكل يا نور"

قال هذه الجملة والدي صابر، وتقف بجانبه أمي، ينظران لي بشفقة، ولا أفهم ما سببها.

"نادر لم يرفض لي طعام، أنا أعلمه أكثر منكم"

اقتربت مني أمي، ووضعت يديها على كتفي كنوع من الاحتواء، وقالت:

"نادر ليس بجانبك يا نور"

أعلم إنها تضحك معي، تفعلها كثيرًا هذه الحركة هي ووالدي، لكن أنا لا أحبها، فهي تشبهني بالفتاة المجنونة التي ترى أشياء ليس لها وجود، لكن أعلم أن نادر بجانبي ويأكل لكي نلعب.

"أمي أنا لا أحب تلك الكلام، لا تقلقي سيأكل"

وضعت مغرفتي في الطبق، وأخذت قطعة لحم من الطبق الآخر ليأكلها نادر،

لكن قبضت أمي على يدي تمنعني من فعلها.

"نادر مات يا نور، توقفي عن أفعالك"

"نادر لم يمت.. لم يمت.. لم يمت، تسمعينيا"

كان صوتي عاليًا، تسمعه الجيران والمارين في الشارع. أخرجت كلماتي بصرخة عالية كادت أن تنجرح حنجرتي بسبب شدة الصراخ. لا أحب أن أسمع هذه الكلمة، فهو حي يلعب معي كل يوم ولم يفارقني كما يقولون. أنا لم أقدر على فراقه، فهو يشبهني ليس في الشعر الأسود والبشرة البيضاء، بل في كل شيء. نظرت نحو نادر واقتربت منه كي يتكلم. أمسكت بكتفه وحركته بعنف حتى سقط جسده، وقلت له بلهجة حادة:

"تكلم، قل لهم أنك حي."

ركض والدي وأمي نحوي بالبكاء، فهم لم يشعروا بما أشعر به، لم يشعروا بالنار الحارقة التي تأكل جسدي من الداخل بسبب ما أسمعه منهم. غيابه صعب، لم يمر على عقلي مرور الكرام، بل استعمر الحزن فصوص عقلي وسيطر علي وأكد لي أنه حي ولم يمت بتلك الحادثة اللعينة.

فجأة اختفى كل شيء من حولي، لم أرهم، لقد تبخرت أجسادهم مثل الورقة التي تمسكها النيران. أرى نفسي بروح أخرى، أرى جسدي ساقطًا على طريق، وبجانبي قطع صغيرة من زجاج السيارات المكسور، وخلفي سيارة سوداء كبيرة مقلوبة على سقفها، ويخرج منها رجل يزحف على أصابع يده وقدميه. تنزل من على جبهته الدماء، والجروح تملأ جسده، يطلب من المنقذين أن يهتموا بأولاده. قال له أحد الرجال إنه أنقذ ابنته، لكنه لم يقدر على إنقاذ ولده الذكر، لقد انغرس في قلبه سيخ من الحديد كان كفيلًا أن ينقل روحه للأعلى. سمع الرجل كلام المنقذ وبدأ في البكاء، كان غير قادر على الوقوف على أقدامه المكسورة، لكنه زحف ناحية ابنه الساكن في السيارة ينتظر الخروج. طفل صغير عمره لم يتخطَّ اثني عشر عامًا يفارق الحياة في حادث على الطريق. حاول الأب عدة مرات حتى أخرج طفله من معاناته الأخيرة! ثم زحف مرة أخرى ناحية ابنته الجالسة بجانب السيارة، ليعلم إنها فاقدة الوعي وتنزف الدماء من أنفها بغزارة. يرتفع صدرها وينخفض مرة ثانية، حركة تثبت إنها تتعرض لضربات قوية في الصدر، ينبض قلبها بسرعة فائقة. ازداد توتر الأب، وبدأ يصرخ على الجميع الذين يقفون

مكتوفي الأيدي، كل ما لديهم من مساعدة قاموا به، لكن الآن جاء دور الأطباء وعربة الإسعاف التي تأخرت عن قدومها.

وضع الأب يديه على صدر ابنته وبدأ يضغط عليه عدة مرات، كان يتوقع إنها عملية إنقاذ، لكن بهذه الحركة يساعدها على الموت. وصلت عربة الإسعاف في وقت متأخر، لكنها لحقت ما يفعله ذلك الأب وأخذت ابنته سريعًا إلى أقرب مستشفى. أرى كل هذا من الأعلى ولم أعرف من أنا، لكن الذي أعرفه أنني أشبه تلك الفتاة التي كانت تسقط بجانب السيارة وأنقذتها سيارة الإسعاف، وشعرت بحزن شديد عندما أدركت بوفاة الطفل.

تحركت سيارة الإسعاف وغادرت. أنا بروحي أنتقل بين العوالم، لا أعرف من أين اكتسبت تلك المهارة؟! نفس الرؤية الضبابية، أجد نفسي واقفة في غرفة صغيرة مكونة من سريرين ونافذة صغيرة، وامرأة تجلس على مقعد متحرك تنظر لي. أنا أعرفها، فهي أمي، لكن لماذا تشبه الأموات؟

وجهها شاحب، ومغمضة العيون، وتضع يديها على ساقيها، تشبه المرء الذي يجلس على سفرة الطعام وينتظر نزوله. اقتربت منها كي تفيق من موضعها لكنها لم تفق، بل تظهر في رأسها علامات زرقاء وجروح بكثرة تبدأ من فروة الرأس حتى الرقبة!

كلما اقتربت منها ينهار جلدها الخارجي وتظهر عظامها، أصبحت مثل الجثة التي رأيتها في خزانة الثياب، لكنها لم تشبهها، إنها هي!

لم أفهم شيء مما أراه، مشاهدات وأشخاص كثيرة تأتي أمامي تشبه سكرات الموت. أنا لم أعيش فيها من قبل لكي أعلمها، لكنها لم تختلف عنها كثيرًا إلا شيء واحد، وهو الشعور. وما أشعر به الآن هو الخوف، ظلام كاحل وهواء بارد يدفع جسدي بقوة.. في تلك اللحظة شعرت بأنني في قبري أنتظر سؤال الملكين، لكن أتى عاصم من بعيد، خرج وسط ضوء أبيض خافت، يمدد يده لي، لكن لم يلحقني من الضربة القوية التي نزلت على رأسي!

بالرغم من أنها قوية ومن الطبيعي أنها تدفع بي للتهلكة، لكنها كانت سببًا في إفاقتي من الكابوس الذي حبس أنفاسي لفترة طويلة. فتحت عيني ببطء شديد، لم أقدر على رفع جفوني، يبدو أنني منغمسة في النوم منذ فترة طويلة. بعد محاولات كثيرة فشلت في فتح عيني، نجحت أخيرًا لأرى بعض الملامح التي

تقف أمامي وتتفقد بصري جيدًا. أرى أشخاصًا يرتدون ملابس بيضاء يتحركون حولي بكثرة، وأرى شخصًا آخر يقف على اليسار ويرفع يده أمامي ليطمئن أنني أراه أم لا. لكن أنا غير قادرة على رؤية شيء، وغير قادرة على سماع ما يحصل من حولي. أغمضت عيني مرة ثانية وذهبت لتلك الكوابيس المتعبة التي تلعب بعقلي.

القدر أنقذني في المرة الأولى، والآن ينقذني من ضربة الحاج حامد القوية التي اصطدمت برأسي. بعد أيام من تلك الضربة، وبعد كوابيس لم أقدر على إحصائها، حان وقت أن أفيق. فتحت عيني على عاصم الذي ينحني بجسده ويقترب برأسه أمام عيني ويقول:

"يبدو أنكِ تتحسني، سأجلب الدكتور."

ذهب سريعًا وجاء سريعًا وترك الأطباء والممرضين يجرون خلفه.

"لقد فاقت، تفقدها."

قالها عاصم بلهفة واضحة أسمعها في نبرة صوته. اقترب مني الطبيب وفي يديه مصباح يضيء عيني ليطمئن أنني استيقظت من الغيبوبة التي سكنت عقلي.

"آنسة نور، هل أنتِ مدركة أين أنتِ؟"

أطفأ الطبيب كشافه الخاص ثم قال جملته وهو ينظر لي. قمت بتحريك رأسي للإجابة بنعم على سؤاله.

"إذا كنتِ تشعرين بنا، قولي لي من هذا."

كان يشير بيديه في اتجاه عاصم. التفت برأسي في اتجاهه ثم عدت للنظر للطبيب مرة أخرى.

"عاصم."

"لقد فاقت، الحمد لله."

قالها الطبيب ثم التفت ليأمر الممرضين بمتابعة حالتي، وكتب لي بعض الأدوية وأوصى بها عاصم الذي يقف مبتسمًا أن يقوم بجلبها. وبعد ساعات سيأتي مرة أخرى ليطمئن على استقرار حالتي. كنت أظن أنني ضمن عداد الموتى، لكن القدر

يرى طريقًا آخر لاستكمال حياتي.

أوجاع في الرأس تضربني من حين لآخر، رغم تناولي للدواء الذي جلبه عاصم، لكن رأسي ينفجر من شدة الوجع. بدأت في استعادة إدراجي مرة أخرى بعد عدة أيام. كان عاصم يستمر في مرافقتي ولم يذهب بعيدًا عني، يجلب الطعام ويجبرني على أخذه في مواعيده الصحيحة. كنت طوال الوقت صامتة، لم أخرج حرفًا واحدًا، وأيضًا عاصم لم يضغط عليّ بسبب هذا.

تذكرت فجأة يوم ضربة الحاج حامد لي. يومها قال عاصم إنه عرف من قتل الجثة، وفي أثناء ما يناولني الدواء قلت له:

"من الفاعل يا عاصم؟"

"لقد عدت لأدراجك، حمدالله على السلامة، بقالك أسبوع كامل لم تنطقي حرفًا."

"من صاحب الجثة؟"

"ليس من مصلحتك أن تفكري في شيء يتعبك. نخرج من هنا وسوف نطلع على كل ما تريدين معرفته."

"هل قلت أنني هنا منذ أسبوع؟"

"نعم، من لحظة ضربة الرأس التي ضربها الحاج حامد وأنتِ هنا مغمضة العيون، لم تفيقي إلا ثوانٍ قليلة ثم تعودي للنوم."

"الحاج حامد، لقد تذكرت، هو من قتل شقيقته وقام بدفنها في المنزل!"

أنطقت الحروف بصعوبة، اعتدلت في جلوسي وبدأت في الحركة للنزول من على السرير.

"نور أيتها المحققة، أين ترحلين؟ أنتِ تمرين بظروف صعبة، حاولي تذكر شيء يفرحك ولا تفكري في مواقف حزينة مثل حامد وشقيقته. ومعرفة ما حدث له ستخفف عنك، أحب أن أطمئنك لقد تم القبض عليه، الحاج حامد الآن في السجن يعاقب على فعلته، وأعترف بكل شيء، والسبب في ذلك أنتِ، لقد كشفتي أمره ومنزله الجديد."

"هل أنا صائبة في أمري أم لا يا عاصم؟ لا أعرف لماذا أشعر بالذنب تجاه فعلي،

@ART_OF_BOOK

لقد سجنت رجلًا لم يشعر بأفعاله."

"لكنه أعترف يا نور، كتب في جوابه أنه القاتل."

"كان يريد إفصاح الحقيقة عند مماته للفرار من القانون."

اقترب عاصم من السرير وجلس بجانب قدمي، تحركت يديه نحو يدي ثم تابع قوله:

"لا تفكري في شيء، يجب أن ترتاحي."

"أعلم أنها متأخرة، لكن علمت الآن من عاصم."

قال هذه الجملة نادي صديق عاصم الذي يقف على باب الغرفة ويمسك بعض الورود الحمراء. سحب عاصم يديه مسرعًا من بين أصابعي ثم التفت لنادي وقال:

"لم أرك بورود منذ صداقتنا يا نادي، من أين اكتسبت تلك الحنية؟"

دخل نادي من الجهة اليمنى ووضع ما يحمله جانبي وقال:

"هذه ليست لك يا أستاذ عاصم، إنها للمحققة الصغيرة. يجب أن تفيق سريعًا لنكمل فحص الجثة."

نهض عاصم من موضعه وقال بلهجة حادة:

"لا، لقد انتهى الفحص، لا تشغل بالك بالجثة مرة ثانية."

"لقد توصلت من هي صاحبة الجثة ومن القاتل؟"

"لا، لم نصل، لكن يجب أن ينتهي ذلك البحث الآن. نور مريضة ولا يمكنها الاستكمال في هذا الهرج."

جملة عاصم كانت مزعجة بالنسبة لي، لم أفهم لماذا يقول هكذا، أنا لم أنو ترك الجثة.

"عاصم، كلها أيام وسوف أخرج من هنا وسأكون قادرة على البحث خلف الجثة مرة أخرى، أنا لست مريضة إلى هذا الحد."

"أنا قلت لم نستكمل، انتهى النقاش."

"ليس قرارك يا عاصم."

قالها نادي وهو يرفع يديه أمام عاصم:

"وليس قرارك أنت أيضًا، تفضل وشكرًا على زيارتك."

أشار عاصم لنادي بيديه في اتجاه الباب:

"عاصم، نادي أتى لزيارتي أنا وليس أنت، لا يمكنك معاملته هكذا."

ابتسم نادي من ردة فعلي تجاه عاصم الذي غادر الغرفة سريعًا بعد سماع كلماتي التي وضعته في موقف محرج.

"عاصم، عاصم."

لم يسمع لي، غادر ولم يعد مرة ثانية. كنت أظن أنه سيعود بعد زيارة نادي، لكنه لم يتصل ولم يراسلني بتلك الرسالة الصغيرة التي لم أعرف معناها حتى الآن. انقطع كل شيء عنه مثل ما فعل من قبل. مرت ثلاث أيام ولم يأتِ عاصم إلى المستشفى، واليوم سأغادر، لقد تم شفائي. عدت إلى عمارتي وأنا أستند على السيارات المركونة في الشوارع، أستند على الحائط بسبب شدة وجع الرأس.

وعند الوصول استقبلتني الست حنان زوجة الحاج حامد بنظرات حادة تقف على عتبة منزلها ترتدي ملابس سوداء حزينة على زوجها الذي سيعدم قريبًا، كانت تريد القفز علي وتنهش في جسدي بسبب ما فعلته في زوجها لم أنظر إليها وتابعت صعود وقبل مغادرتي من أمامها قالت لي:

- "من اليوم تبحثي عن مكان أخر الغرفة ليست للإيجار".

توقفت مكاني للحظات ثم التفت إليها قائلا:

- "لكن أنا دفعت للحاج حامد ايجار الغرفة".

لم تنتبه لكلامي وأغلقت الباب في وجهي بدفعة قوية، لا أعلم ماذا سأفعل في الجثة التي تسكن في الأعلى كيف أرحل بها؟!

صعدت حتى وصلت أمام الغرفتين، في تلك اللحظة تذكرت أمي مرت أيام ولم اطمئن عليها لا تعرف عني شيء ستنفجر في وجهي عندما تراني بهذا الشكل، اقتربت من غرفتها على أمل أن أراها دون أن اعلمها بقدومي.. لكن قبل أن تقترب يدي من مقبض باب الغرفة صدر من خلفي صوت راجل أعرفه

- "حمد الله على السلامة يا انسة نورا!"

قالها راجل سمين بعيون واسعة ملامحه ليست غريبة على ذاكرتي لكن أنا لم اتذكره، تخونني ذاكرتي يبدوا أن ما قاله الطبيب يحدث! تتأثر الذاكرة بفقدان بعض المواقف والشخصيات، لكن أنا اتذكر نادي الذي يقف بجانب الشخص السمين المبتسم وقال:

- "هي دي الغرفة يا درويش باشا اللي فيها الجثة!!!"

- "جثة!!!"

علامات الاندهاش تنتشر على وجهي ارتفع حاجبي بشدة كاد أن يلتصق بشعر رأسي

- "أنا أسف يا نور لما عرفت أن عاصم ناوي يبعدني عن البحث خلف الجثة قولت ابلغ درويش باشا"

تذكرت في تلك اللحظة الشخص السمين أعرفه جيدًا فهو درويش التي قالت عليه امرأة المستعمرة أنه يعمل لدي رجال الشرطة

- "هل أنت تعرف درويش!!"

- "اه أعرفه وبساعده كمان في جلب الجثث عشان يقوم بتبدلها ونأخذ مكانها سجائر من الطلاب"

- "نادي تربيتي ويعلم ما يقوم به!!"

- "أنتَ ضابط شرطة وكنت تساعدني؟!"

- "كنت ضابط شرطة لكن الأن متقاعد، ابحث وراء الجثث لأنها تجلب لي السجائر الممنوعة من الطلاب، بعدما كشف أمري في المستعمرة أصبح جلب السجائر من الصعب وجوده ومهنتي الأن سرقة الجثث، لكن تغيرت الخطة، ابعدي عن طريقي لتفقد الغرفة"

ركضت إلى الغرفة التي تجلس فيها الجثة سريعًا وقفت أمامها لمنع دخولهم، تحول درويش لوحش وقولت له:

- "لا يمكنك الدخول هنا!!"

@ART_OF_BOOK

ظهرت على درويش ابتسامة عريضة اقترب مني وسحبني بقوة، سقطت على الأرض بسبب قوته، فتح باب الغرفة ليتفقدها، نظرت لهم من الخارج لكن لاحظت أمر غريب!!

الطاولة فارغة لا يوجد عليها جثة!!!

بعد دقائق معدودة خرج نادي ودرويش وعلى وجههم الغضب، قبض درويش على أذرعي ونظر في عيني وقال بلهجة تهديد

- "أين الجثة أيتها الفضولية، أنا لست درويش الذي يساعدك، كان بيننا صفقة وراحت لحالها والأن وقت العمل أين الجثة؟!!"

- "لا أعرف"

- "تعرفين!!"

- "يمكن تكون في الغرفة دي!!"

قالها نادي وهو يشاور على الغرفة الأخرى التي تجلس فيها أمي

- "لا لا ليست هنا!!!"

لم ينتبهوا لي اتجهوا سريعًا نحو الباب الذي ضربه درويش بقدمه ضربة قوية، من المؤكد أنه أفظع أمي فاتن من نومها، لكن ما تلك الصدف الغريبة!! لم أرى أمي داخل الغرفة أيضًا أين رحلت؟!

بحث درويش ونادي الخائن في جميع أنحاء الغرفة أراهم وهم يقلبون المراتب على الأرض ويفتحون خزانة الثياب الفارغة، بعد دقائق صارت فوضى عارمة داخل الغرفة كل شيء ممزق وليس في مكانه، خرجوا وهم مكتوفين اليدين لم يجدوا شيء!

- "اخفيتي الجثة؟!! سأراقبك حتى اقبض عليك يا نور وأعرف أين تلك الجثة

غادر درويش هو ونادي سريعًا بعد تهديدهم لي، لا أعلم أين اختفت الجثة وأين هي أمي؟!! نهضت من مطرحي ودخلت الغرفة وأنا ابحث عنها".

- "أمي أين أنتِ؟!!"

لا يوجد رد، لا يوجد أحد فيها غير الهرولة التي فعلوها.

"أمي اين انتِ؟"

كررت جملتي عدة مرات، لكن لم أحصل على رد أو إجابة، لا يوجد أي أثار لها.

"أمي إذا كنتِ تسمعيني اخرجي، لقد رحلوا."

"لا يوجد شخص هنا ليرد عليك."

نظرت خلفي لأرى المتكلم الذي يقف على باب الغرفة، وفي يديه ظرف أبيض كبير الحجم.

"عاصم، كويس أنك رجعت، الجثة اختفت من الغرفة وأمي كمان مش هنا."

"أعلم."

"تعلم؟ هل أنتَ من أخفيت الجثة وأمي؟ أين هم؟"

"الإجابتان مرتبطتان ببعض، تحبي أجاوبك هنا ولا في المنزل القديم؟"

"منزل قديم؟"

"نعم، لا تتذكري هذا؟"

وضع عاصم الظرف على الأرض، ثم أخرج من جيبه هاتفه ليعرض علي صورة لمنزل مكوّن من طابقين، اقتربت منه ومددت يدي لأخذ الهاتف والتمعّن أكثر فيه.

"هل هذا منزلك؟"

"لا، منزلك أنتِ، لا تتذكري هذا الشخص؟"

أخرج صورة من جيبه لطفل عمره يتخطى العشر سنوات، لكنها ليست صورة عادية، إنه نادر، لا يمكن أن أغلط في صورة نادر شقيقي. بدأت أشعر ببعض الصداع في رأسي، تمالكت نفسي وقلت له:

"من أين أحضرت تلك الصورة؟"

"منذ قليل كنت في منزلك القديم الذي أعلمني به والدك صابر في السجن، وجلبتها من هناك. لماذا تعيشي هنا وأنتِ تملكي منزلًا كهذا؟"

@ART_OF_BOOK

"لا أعلم عن أمر المنزل، أنا أبحث عن أمي."

بدأ وجهي في الاحمرار، تمتنع حنجرتي عن ابتلاع ريقي من شدة ضيق التنفس، صداع رهيب أتى من بعيد ليضرب رأسي، يشبه المطرقة وهي تنزل بكل قوتها على رأس المسمار. أمسكت رأسي من شدة الوجع بسبب كلمات عاصم المزدوجة القاتلة.

"أنتِ لا تعلمي ما حدث لها."

قالها وهو يقترب مني لتنفجر رأسي مرة أخرى.

"هل حدث لأمي مكروه؟"

"أنا لم أرها منذ معرفتي بالجثة التي كذبتي عليّ وقلتي أنكِ صدفتي بها عند صديقتك."

"من الطبيعي أنك لم ترها، فهي لم تخرج من غرفتها."

تزداد حركاتي يمينًا ويسارًا بسبب إحساسي بالبرودة، أضم يديّ على أكتافي، بدأت أنفي تسيل بدون سبب. ابتعد عاصم واقترب من عتبة الباب ووقف في المنتصف وقال:

"أو ليس لها وجود يا نور؟"

توقفت عن الحركة عند سماع كلمات عاصم، نظرت له بنظرة شاردة تائهة لا تركز على شيء، وتابعت بعدها قول:

"لقد جاءت، انظر خلفك."

رأيت أمي خلف عاصم، تجلس على مقعدها المتحرك، متخشبة النظر، تقف في منتصف الساحة الخارجية للغرفة. اتجهت إليها سريعًا وأنا أدفع عاصم ليبتعد عن طريقي، انحنيت عليها بالأحضان، فأنا الآن أشعر بالأمان.

"نور، ماذا تفعلي؟"

"هذا عاصم يا أمي، لم أتكلم عنه من قبل، لكنه وقف معي في كل الأزمات. تعالَ اقترب يا عاصم، مد يديك وسلم عليها."

اقترب عاصم بخطوات بطيئة، لكنه لم ينظر لأمي فاتن، عينه لم تزَ غيري.

"نور، لا يوجد شخص غيرنا هنا."

ارتسمت على وجهي ابتسامة لكلام عاصم الذي قاله على سبيل المداعبة، مثل ما كانت تفعل أمي من قبل.

"يحب الهزار دومًا، يجب أن نكمل حديثنا في الداخل."

"نور، توقفي عن أفعالك واستمعي لما أقوله لكِ، لا يوجد غيرنا هنا."

"أنتَ حتى الآن لم تصدق، تتهمني بالجنون. أمي أمامك، ألا تراها؟"

"إذا كانت أمامي، قولي لها أين كانت، ولماذا لم تسأل عن سبب اختفائك أثناء وجودك في المستشفى."

- "قولي له يا فاتن أنكِ تعانين من شلل في الأقدام ولا يمكنكِ القدوم."

نظرت لها وأنا أنتظر إجابتها، لكن لا يوجد رد، فهي متخشبة النظر في اللاشيء، لا تحرك شفتيها ولا تنظر لي من الأساس.

- "أمي، هل تسمعيني؟"

قلتها وأنا أجلس أمامها للتأكد من أنها تشعر بي.

"أمي، أنا نور، لماذا لا تنظري لي؟ لماذا لم تجيبي؟"

"لا يمكنها أن تجيب عليك يا نور."

"لماذا؟"

"لأنها ماتت."

قالها عاصم بصوت عالي كاد أن تسمعه الجيران، وقف أمامي وتابع كلامه وقال:

"نور، الجثة التي تبحثين خلفها منذ شهور كانت تخص أمك. المجرم الذي تريدي وضعه في السجن هو أنت. لقد قمتي بقتل أمك في منزلك القديم."

نهضت من مطرحي لأضع يدي على فم عاصم الذي يلفظ بكلمات من الممكن أن تقتلني.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"هذا ليس صحيح، هزارك بلا طعم، ولا يمكن السماح لك بالوقوف جانبي مرة أخرى، سوف ابحث عن الجثة بمفردي."

"فوقي يا نور، فوقي، أنتِ مريضة تتحدثين مع أشخاص ليس لهم وجود، يجب أن تعترفي بمرضك لتشفي."

رأيت عين عاصم تلمع وهو يتلى عليّ بكلماته السامة مرة أخرى. ركض داخل الغرفة ثم عاد وفي يديه الظرف الأبيض، أخرج منه عدة أوراق، بعضها إشاعات والتحاليل للمخ.

"أنظري إلى تلك الأوراق التي تثبت أنكِ تعانين من شيء في الجمجمة، رأسك يوجد بها ثقب يعوق ذاكرتك، فأنتِ لم تتذكري يوم الحادثة، أو بمعنى أوضح، أنتِ لا تريدين تذكره."

أمسكت كل الأوراق التي أخرجها عاصم، فهي كلها تخص اسمي (نور صابر الأحمدي طه).

"هذا ليس أنا، أنتَ تضحك عليّ، أنا لم أقدر على فعلها."

"لقد فعلتيها يا نور. أين هي الآن؟ ليس لها وجود بيننا."

تابعت النظر في أنحاء الساحة، لم أراها كانت تجلس هنا منذ قليل. عدت غرفتي مرة أخرى للتأكد، لكن لا وجود لها مثلما يقول عاصم.

"أين هي؟ أين تختبئ يا عاصم؟"

أمسكت بجسده وأنا أتابع النظر في كل مكان، لم أقدر على منع نزول دموعي، فهم يتسابقون في الهبوط.

"لم أقتلها يا عاصم، لم أقتلها، لا يمكنني فعلها."

"هذه الحقيقة يا نور، أعلم أنها مؤلمة، لكن لا خيار لنا."

"كانت تقول لي أنها تحبني، ولم تقدر على فراقي. دائمًا توصيني على زيارتها في القبر عند موتها، كيف يمكنني أن أنظر في قبرها الآن وأنا التي قتلتها؟"

"سنزورها سويًا، أنا دفنت الجثة في مكان خالٍ من البشر. لا تقلقي، لا يعلم أحد بمكان الجثة، ولا يعلم أحد بجريمتك. سوف تظلين في الخارج، ولا يقدر شخص

على سجنك."

أفلتت أصابعي من جسد عاصم، وهبط جسدي لأجلس على الأرض. لا يمكنني أن أصدق ما قاله، أشعر بنار حارقة داخل قلبي، يمتلك الحزن جزءا كبيرًا الآن.

كنت أبحث عن القاتل ولم أعرف أنني المتسببة، كنت أبحث عن نفسي ولم أعرف أن القاتل والمقتول يجلسان كل يوم بجانب بعضهما، لكن لا أقدر على العيش بدونها. ليست للحياة فائدة إذا لم تكن فيها أمي. لا يمكنني أن أخفي الحقيقة عن نفسي كل يوم، لن أعيش لحظات وأنا أعلم أنني المتسببة في قتلها، سوف ينفجر عقلي يومًا ما، لم أتخلص من تأنيب الضمير على أفعالي، سوف يدفعني الشيطان للتخلص من نفسي كنوع من أخذ الحق. ولماذا الانتظار، يمكنني فعلها الآن.

"انهضي يا نور، سوف نذهب لأمك في قبرها، ومن بعدها ستدخلين المستشفى. لقد أخبرتني الأطباء بوجود علاج لنفس حالتك، ستشفين، لكن يجب السرعة قبل فوات الأوان."

نهضت وأنا أستند على يد عاصم، لم أنتبه لما قاله، كل الذي أفكر فيه هو الوقوف على حافة السور، أفكر في الانتحار، لكن ما يدفعني للوراء هو الخوف من الاصطدام وانفجار جمجمة رأسي وانفكاك أجزاء جسدي. لكن بعد تلك القفزة سوف يعود كل شيء لمكانه الخاص، لا يمكنني الشعور بشيء، ستنتهي كل الأوجاع وسيزول المرض من جسدي، وسوف أجلس بجانب أمي.

"سأقوم بغلق الغرف جيدًا، وننزل سويًا لقبرها. لا تتحركي من هنا."

نظرت خلفي للتأكد من أن عاصم يغلق الغرف، اقتربت من السور ونظرت للأسفل، لم أرى إلا شارعًا خاليًا ينتظر سقوطي ليمتلئ بالبشر، وينتشر الصراخ في الأعلى، وتحيط بي الشرطة للبحث عن الجاني. نظرت مرة أخرى لعاصم وأنا أعتذر له على ما أفعل الآن. بعد أن ألقي نفسي، سوف تتهمه رجال الشرطة بأنه المتسبب في دفعي من الأعلى، لكن أعلم أنه سيخرج منها. تراجعت للخلف ثم صعدت على السور، وتتساقط مني الدموع. أراها تقف في الأسفل، أراها تنتظرني وتشاور لي بالقفز، قلت لها:

- "أنا قادمة، قادمة لكِ يا أمي! سلام يا عاصم."

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

قلتها وأنا أنظر له، والدموع تتساقط مني.

- "لا."

آخر شيء رأته عيني هو عاصم، وهو يركض نحوي ويصرخ بسبب فعلي، كان يريد أن ينقذني من الذي أفعله، لكن لم يلحقني بل قفز خلفي دون قصد.

قفز وهو يصرخ بصوت عالي وعلى وجهه الدموع، كان يريد ملاحقتي من الموت، لكن سقطنا سويًا على العربات المركونة في الشارع الخالي.

صدر صوت عالي في الشوارع، اشتعل صوت صافرات العربات ليخبر الناس بوجود سرقة تحدث الآن، لكن إنها ليست كذلك. خرج من النوافذ جميع الجيران للتفقد ما يحصل في الخارج، وبعد ثوانٍ بدأ الصراخ، أسمع صوتهم وأراهم بروحي التي خرجت سريعًا من الجسد، أرى أيضًا عاصم يقف بجانبي مبتسمًا، ننظر لجسدنا الذي ينزف الدماء، أرى الأوراق تتطاير في الهواء وتسقط خلفنا، أرى الجميع يقترب ليرى أبشع حالة انتحار. اليوم لم يُمحَ من ذاكرة الموجودين، ستحكى قصص للأطفال بوجود حادثة انتحار لشابين ضربتهما المخدرات، لكن لم يعرف أحد الحقيقة، لم تتبعثر أشلائي كما كنت أخاف، لم يعرف أحد بأسراري، لم يعرف أحد بأنني قمت بالانتحار بسبب أنني قتلت أمي دون قصد.

دائمًا نخطط لأفعالنا، لكن يأتي القدر ليتيح كل هذا ويكتب كلماته ليوقع عليها الجميع. بدأت أشعر بتجوال روحي في أنحاء الهواء بعيدًا عن جسدي، أرى والدي صابر يجلس في فراشه ويضم يديه بين ساقيه ويرتجف، فهي آخر لحظات أعلمها، لحظات الوداع بين الأموات والبشر، نظرات خاطفة على كل من كان يهمه أمري، لكن لم أنتظر كثيرًا حتى ذهبت لمن أعرفهم وذهبت لمكاني الأخير، كي أراها مرة أخرى، أمي فاتن، وهي تقف في مكان واسع مملوء بالزرع الأخضر، تستقبلني بالأحضان وتستفسر مني عن أحوالي. جلسنا نحكي كثيرًا وأعلمتها بكل ما مررت به، وكل ما فعلته دون قصد. كانت تنتظر أبي ليأتي لتكتمل العائلة مرة أخرى، فأنا أعلم أنه سوف يأتي، ليكمل شملنا كما كنت أتمنى، لكن ليس في الدنيا، بل في الحياة الأبدية.

***

تمت

@ART_OF_BOOK

بحمد الله

@ART_OF_BOOK